

الكتـــاب الأول

وشيش البحر

رواية

آمانى خليل

المجلس الأعلى للثقافة



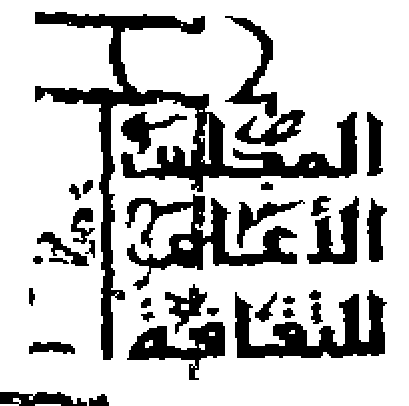
الكتاب الأول

- ٢٧ -

وشيش البحر

رواية

أمانى خليل



١٩٩٨

التصميم الأساسى للغلاف للفنان محيى الدين اللباد + أحمد اللباد

لوحة الغلاف للفنان : حسن حماد

وشيش البحر

أمانى خليل

هواء الصيف الساخن ينفذ من فتحات الشيش المغلق ، يحول الحجرة إلى قطعة من الجحيم . استلقت بملابسها الداخلية على السرير . أمسكت بالمنديل من فوق الكمودينو تجفف العرق عن رقبتها وصدرها . غيرت مكانها بحثا عن مكان أقل حرارة على الفراش . حاولت استدعاء النوم فأبى . الشمس فى الخارج تشعل اللهيب فى كل الأشياء . تقلبت عدة مرات . جلست . بكلتا يديها قبضت على خصلات شعرها وكبلتها بمشابك الحديد . كان كل شئ حولها وداخلها يشتعل : الجو ، القلب ، العقل . بتثاقل تركت فراشها ، كانت تشعر أن كل أعضائها الداخلية وأفكارها ومشاعرها ، كل شئ داخلها قد انصهر ، تحول إلى بركان مكتوم يبحث عن أى فتحة ، أى نقطة ضعيفة . ليتفجر . ينطلق ، يدمر كل شئ حتى نفسها .

* * *

فى الحمام استسلمت لنعومة الماء الفاتر المنهمر على جسدها يلطف فى حدة البركان المتأجج . وقفت ساكنة تحت الماء وكأنها تمثال موضوع فى نافورة . بعد فترة بدأت تستجيب لطراوة الماء وكأن حياة جديدة ولدت فيها . تمايلت تحت الماء على أنغام أغنية ترددت داخلها فاستجابت لها الشفتان واللسان . ملأتها النشوى وعلا صوتها مترنما .

فى المرآة رأت وجهها البيضاوى يبتسم لقطرات الماء المتساقطة من خصلات الشعر . بإعجاب فردت الشعر المبلول على الكتفين العاريتين . تردد داخلها صوت تعرفه جيدا « فينوس .. أنت فينوس الشرق .. » ابتسمت لما تذكرته . لفت جسدها بالمنشفة فى خجل واستدارت للمرآة اختلست نظرة سريعة لظهرها فى المرآة وهى خارجة من الحمام .

* * *

هناك ، فى نقطة ما ، لم تستطع طراوة الماء أن تصل إليها ، كان البركان مازال يغلى . ألقت الكتاب جانبا . دارت فى أنحاء البيت . واجهت المرآة . وقفت تتأمل تلك الواقفة أمامها . رأتها كثيراتٍ ، كلهن يشبهنها . بأصابع مرتجفة تحسستهن بحثا عن أكثرهن قربا منها . اقتربن من بعضهن واندمجن فى كتلة أخذت تتعاظم . أسرعت تختبئ من أمام المرآة . أحست أنهن يتبعنها . قررت الفرار خارج البيت . شعرت بحنين إليه . ملجأها وملاذها . « سأخبئ رأسى فى صدره فيضمنى بذراعيه . سأخبره عن كل شئ فيربت على شعرى يمسح دموعى

يضعنى فى السرير لأهدأ ويصنع لى كوبا من الليمون . طفلته المدللة أنا . أرتاح على صدره . لست أدرى هل أفسدنى بتدليله ؟ سأسأله . عنده إجابات لكل الأسئلة . عنده قصص كثيرة . جواره لا أشعر بالساعات تمضى . »

* * *

دقت الباب ثلاث دقات . عرف أنها هى . كان يتمنى أن تأتى . بابتسامته التى تعودت عليها استقبلها . قرأ اضطرابها فى عينها .

- هذا الحر الشديد يحتاج إلى كوب من الليمون .

- أحتاجه بشدة .

ألقت جسدها المنهك على المقعد . مدت ساقيها وأرخت رأسها . أغمضت عينيها وشعور بالراحة والأمان يهدهدها .

- الليمون المثلج .

- لقد أفسدتنى بكثرة تدليلك لى .

- كفى عن الخرافات .

أغمضت عينيها بدلال مبتسمة . كانت تنتظر تلك الإجابة . كانت تعرفها .تود أن تسمعها . قال بتردد :

- أكتب رواية جديدة .

- صحيح ؟ هذا أجمل خبر ، من الآن أقوم أنا بتدليلك ، تجلس أنت هكذا وأنا أصنع الشاى والقهوة ، من الآن لا عمل لك سوى الرواية الجديدة .

« أنت نسمة فى قيظ الصحراء ، أنت زهرة فى خريفى ، أنت من أنعشت روحى وبعثتنى فى الحياة » .

- سأحضر كل يوم ، أرتب لك المنزل وأطهو لك الطعام . لا أريدك أن تنشغل بأى شئ .

« يكفينى أن أراك .. أن تكونى دائماً إلى جانبى .. تجلسى أمامى ، أمشط شعرك الناعم ، أضفره ضفيرة طويلة ، تسحبينها على صدرك ، تنتفض مع نبضات قلبك كما حدث يومها . لعلك نسيت ذلك اليوم ؟ »

- أى شئ تحتاجه سوف ألبيه لك ، أنا مسئولة عنك من الآن وحتى أرى الرواية كتابا مطبوعا فى كل المكتبات .

« طلبت منك أن أمشط شعرك ، صرخت قائلة كان أبى يحب أن يمشط شعرى ولكنى لم أسمح له أبدا .. قلت : لست أبيك .. يومها نظرت إلى نظرة غريبة ، لن أنساها أبدا ، لم أفهمها رغم أعوامى الستين ، أعطيتنى المشط وسكنت أمامى فى هدوء طفلة مطيعة . يداى ترتعشان وهما تغوصان فى ليل شعرك » .

- هووه .. أين أنت ؟

- أنا معك .

- لم تكن هنا على الإطلاق .

- بل دائما معك .

- إذن اتفقنا .

- إفعلي ماتحبين .

الحماس زادها نضارة . عيناها لامعتان . أمسكت يده بحنان أمٍ تقود طفلها . أجلسته إلى المكتب . قبلت جبينه . أعطته قلما .

- لحظة ويكون لديك أجمل فنجان قهوة .

تركته سعيدة بالمهمة التي كلفت نفسها بها ، « هو يحتاجني ، قاسيةٌ الوحدة على من في مثل سنه ، الوحدة قاسية على أي إنسان ، لوكانت له ابنة ترعاه ، سوف أعتني به ، لن يحتاج إلى أي شئ بعد الآن » .

بين يديها الصينية تحمل فنجاني القهوة وكوب الماء المثلج . وضعت الصينية على المكتب وجلست على مقعد جواره . غاصت في المقعد رافعة ساقيها على منضدة أمامها . انتبهت لوجود لوحة جديدة على الحائط . باندفاع قالت :

- سعيد ! لوحة جديدة لسعيد ؟ هذه خطوطه ، أنا أعرفها ،

تفحصها بانتباه .

- نعم .

- لم يخبرنى أنه أهداك لوحة !

- وهل يخبرك عن كل شئ يفعله ؟

تورد خداها . رمشت عيناها .

- لا ، لكنى لم أر هذه اللوحة من قبل .

- هل تلتقيان كثيرا ؟!

- دعك من الكلام (وتضيع الوقت) ، أعرف حجج الصغار هذه ،

أمسكت فنجان القهوة ورشفت منه رشفة متجاهلة عينيه اللتين تتفحصانها محاولتين الغوص فى عقلها وقلبها . دفعت المنضدة بقدمها بخفة ونهضت ممسكة بالفنجان . اقتربت من اللوحة مسحورة . هذا البورتريه يحمل ملامحها . ابتسمت وهى تهمس :

- فينوس الشرق !

- تشبهك ، أليس كذلك ؟

- لا أعتقد ، هذه لا ملامح لها .

شعرت أنها تكذب وأنه مكتشف هذا الكذب ، ارتعشت شفتاها بابتسامة واهنة وهى تضع الفنجان .

- يبدو أن وجودى معك سيعطلك ، سأتركك الآن وأمر عليك فى الغد .

- كما تحبين ، سعيد أسماها فينوس الشرق .

ازداد ارتباكها ، التقطت حقيبتها ، قبلت جبينه قبلة مجاملة ، واستدارت منصرفة وهى تتمتم :

- فليسمها ما يشاء .

* * *

فاجأتها نسمة صيفية رطبة عند خروجها من الباب . استنشقت الهواء بعمق فملأت رئتيها ، أعطت التصريح لقدميها كى تقوداها حيث شاءتا . مضت من شارع إلى شارع ، تتلكأ أمام الفتارين وسعيد يطل عليها من كل فترينة . يقف أمامها . يخايلها . يبتسم . يحجب عنها المعروضات . عقدت العزم على معاتبته . انطلقت فى طريق المرسم .

* * *

تركته لوحدته . صوت الباب صدم أذنيه فارتجف قلبه . اتسع الفراغ حوله . صار صحراء لا نهائية . حاول أن يتنفس . لم يجد هواء كافيا . ألقى القلم بإهمال وقام . دخل إلى الشرفة علّه يجد بعض

الهواء . شعر بدوار خفيف رجع إلى الغرفة ألقى بنفسه على المقعد حيث كانت تجلس . أراح ظهره إلى الخلف مسندا رأسه على ظهر المقعد . مد يده المرتعشة متحسسة تبحث عن علبة الدواء . التقط قرصا وضعه تحت لسانه . بدأ يشعر ببعض التحسن . رفع رأسه ببطء . واجهته فينوس الشرق جالسة أمامه في هدوء وسكينة ، ابتسم لها . « فينوس الشرق ، آه .. سعيد ، أنت تحبها ياصديقى ، أثق من حبك ثقتى فى حبى لها ، لكن هل تحتاجها أنت كما أحتاجها أنا . هى الفرحة الأخيرة فى حياتى ، فلتدعها لى . دعنى أرتشف آخر قطرات فى الكأس قبل أن تفرغ منى الحياة » .

ضحك ضحكة مبتورة . قام بهدوء . اقترب من اللوحة . تحسس بيديه الوجنتين النديتين . أزاح خصلة شعر عن الجبين . أطلق أصابعه تغوص فى جدائلها ، تطلق العنان للخصلات فتتطاير فى الهواء . سمع ضحكتها الطفولية تتردد فى أنحاء الكون . رن صوتها فى أذنيه :

- محمود .. أريد أن أحب رساما .

كانت تستلقى شاردة على الأريكة فى حجرة المعيشة . عائدة من العمل . مجهدة . جلس على المقعد المقابل يتأملها . ظنها نائمة . عيناه تتحسسان بشرتها الناعمة وشعرها المتهدل على المسند . تقبلانها . ود لو ضمها إلى صدره حتى تمتزج بخلاياه . رفعت رأسها قليلا وفاجأته تلك المفاجأة ، فكانت دهشة ، وكانت طعنة ، وكانت ... أزاح

عينيه عنها . ثبتهما في كتاب كان في يده يدعى القراءة فيه . لملم شظايا قلبه التي بعثرتها المفاجأة . رسم ابتسامة فأطلت على شفتيه باردة .

- ولماذا رسام ؟

- لست أقصد رساما بالمعنى الحرفي ، بل أقصد فناناً تشكيليا : رساماً ، نحاتاً ، مصوراً ، أي شئ .

- نعم ، لكن لماذا ؟

- لأنهم مجانين .

- العالم ملئ بالمجانين ، ابحثى عن أي مجنون .

- لا هذا سيكون مجنون فني ، سيوافق على كل شطحاتي لأنه سيستوعبها ، ستمتعه كما تمتعني ، لن يكلمني بالمنطق ، هذا صح ، هذا خطأ ، هذا ...

« هكذا ؟ إذن أحببت سعيد . ترى هل هو مجنون بالقدر الكافي ؟ القدر الذي تريدينه ؟ هل أحببته فعلا ؟ آه ، أنا الذي قدمتك إليه ، عرفتكما ببعض ، جمعتكما معا ولم يخطر .. لم يخطر على بالي .. لكن هل تحبينه ؟ »

ردد بصوت واهن محدثا البورتريه .

- هل تحبينه ؟ هل تحبينه ؟ نعم ، نعم .

تراجع للخلف حتى عاد لمقعده . جلس . أراح رأسه بين كـفيه مستندا بمرفقيه عـلى ركبتيه « لعلهـا ذهبت إليه الآن . هى معــه الآن . »

*   *   *

نظرته النهـمـة أيقظت بداخلها قطة برية . أخافـها هذا الشعور . أخافـها أكثر ذلك الشرر المنبعث من عينيه . أحست به سلاسل من لهب تطوقـها ، تكبلها ، تجذبها إلى هذا الشخص الذى لاتعرفه ، المنحنى فوقـها ممسكا بيدها يعد عليـها نبضات قلبهـا . ارتجفت . جذبت يدها بعنف . أخفت رأسها فى صدر سعيد . « أنقذنى ياسعيد ، هو يسرقنى منك ، لاتدعه يفعلها ، ضمنى إلى صدرك ، أفرد الجناحين وطر بى إلى فضاء بعيد . نسبح فى أمواج السحاب فى عالم نصنعه معا » .

جاءها صوت وقور عميق كأنه مــن جب سحيــق عمره ألـف عـام لا يتناسب مع تلك النظرة العربيدة الشرهة .

- أحسن الآن أليس كذلك ؟

لم تجبه . ازدادت التصاقا بسعيد. تبحث فى أعماقه عن مخبأ تلوذ به . أصابع سعيد التى تربت على خدها وتمسح شعرها تشعرها ببعض الراحة ، تهدئ قليلا تأججا يندلع داخلها .

- لاتنزعج بهذا الشكل ، هى بحالة طيبة ، لكن أرجو أن تمروا على عيادتى فى أى وقت .

عيناه تلتهمـــان أصابع سعيد وهى تمسح شعرها . تلقى شكره ببرود شارد ، « هذه لى . ليس الآن ، لكـنهـا لى ، أقسم أنـهـا ستتبـعـنى حتى آخــر الأرض ، خائفة هى من نفسها ، عيناها تفضحان رغبتها ، هى لى » .

أخرج بطاقة صغيرة من جيبه . أعطاها لسعيد . مد لها يدا دافئة للسلام ضاغطا بخفة على أناملها التى راحت تتعثر فى راحته محاولة الفرار . عيناها مغمضتان ورأسها يزداد ضغطا على صدر سعيد المرتبك حائرا بين تصرفاتها والطبيب الذى بدأ فى الإنسحاب . لف ذراعيه حول كتفيها . بصوت خافت سألته :

- هل أنصرف ؟

- نعم .

رفعت رأسها متطلعة إليه . احتضن رأسها بين كفيه وهمس :

- فينوس ، كدت أموت خوفاً عليك .

أغمضت عينيها باستسلام . أحست لذته تسرى فى جسدها ، قالت هامسة :

- دعنا نرحل .

- أأوصلك إلى منزلك ؟

- بل إلى منزلك .

أحاط كتفيها بذارعه وهما فى طريقهما إلى السيارة .

* * *

فى السيارة استسلمت للمقعد فى استرخاء ملقية برأسها إلى الخلف ، أغمضت عينيها وأغلقت أذنيها وغابت عن العالم منفصلة عن كل ماحولها . طارت فى سماء بعيدة ، تسبح فى الفضاء ، يدغدغها سحاب أبيض منفوش . تحملها الرياح فى أرجاء الفضاء . تبعثر جدائلها ، تتطاير حولها مرحة . نجمات لامعات اصطففن لاستقبالها كل تضوى بنور مختلفة ألوانه . كان القمر هناك مبتسما . عيناه تشعان بالحنان ، فارداً ذراعيه على المدى ، فاتحا صدره ، تلج إليه فيطويها تحت جناحيه ويسبحان معا فى ألق النجوم .

* * *

أمسك عجلة القيادة شارداً يستعرض أحداث يومه . كان قلقا عليها . لا يفهمها . دائما هو لايفهمها ، ودائما هى تأتى بردود أفعال غير متوقعة . كلما اقترب منها أجفلت وتراجعت . دائمة التوتر وكأن هناك شيئا يطاردها . فى الصباح سمع دقاتها الثلاث . أزاح النوم عن عينيه . ألقى نظرة على المنبه إلى جواره ، كانت السابعةً . ابتسم عائداً إلى النوم معتقدا أنه يحلم فهى دائما تقتحم أحلامه . عاودته الدقات الثلاث ، ثم ثلاث أخرى أعنف ، أسرع إلى الباب عيناه تسبقانه قلقتين .

قلبه ينبض بعنف . فتح . واجهته ضحكتها الطفولية .

- مازلت نائماً أيها الكسول ؟

كان يحدق فيها وكانت ماتزال تضحك .

- هل تنام دائما هكذا بدون ملابسك ؟

نظر إلى ملابسه الداخلية . ارتبك ، ابتسم . حاول أن يتكلم . لفت ذراعيها السمراوين حول عنقه . قبلته على خده .

- هيا إلى الحمام حتى أجهز أنا الإفطار ، هيا لا تتكاسل .

قبلته على خده الآخر .

- حتى لايغضب .

تركته إلى المطبخ . نظر إلى نفسه فى زجاج النافذة . ابتسم وهو يدلك رأسه بأطراف أصابعه . أخرج لسانه لصورته وغمز بعينه . جاء صوتها عاليا متوعدا :

- أمامك نصف ساعة ، تأخذ حماماً وترتدى ملابسك وتفطر ، أمامنا بروجرام حافل اليوم .

- وعملك .

- أخذت إجازة .

أطلت من باب المطبخ ، صاحت باستنكار .

- مازلت هنا

- حالا .

* * *

أنطلقا يجوبان شوارع القاهرة بالسيارة . تضحك . تعابثه . تجذب عجلة القيادة صارخة . تنحرف السيارة . يضربها على يدها كطفلة . ذهبا إلى الاهرام ثم إلى قلعة صلاح الدين ، تركا السيارة وتسكعا فى حوارى الخليفة والدرب الأحمر والحلمية الجديدة . لم يشعر بالساعات تنساب من يومهما . أحس أنها تريد أن تحتضن الدنيا بين ذراعيها ، أن تحتويها ، أن تملكها . على درجات جامع السلطان حسن جلست ، جلس إلى جانبها . شحوب خفيف كان يزحف على سمرة بشرتها ، أحس بصعوبة ما فى تنفسها .

- لنعد إلى البيت .

- كم الساعة ؟

- الخامسة .

كانت شاردة . لم تكن معه . تنظر فى الفراغ . رددت بآلية :

- الخامسة ، الخامسة ، أنضيع عمرنا فى البيت .

حاولت أن تستعيد مرحها ، قالت بحماس :

- سأدعوك إلى حفل فى الأوبرا الليلة . أوصلنى إلى البيت كى أستعد للحفل وأذهب أنت لتستعد ولاتنس أن تلبس بذلة ، الدخول بالملابس الرسمية . إلبس البذلة البنية .

جذبته من يده وانطلقت تعدو ضاحكة . لاحظت أن الناس وقفوا يتفرجون عليهما . غرقت فى الضحك وهى تقول :

- أكيد يتصورون أننا مجنونان .

فى المساء عندما جاء ليصحبها كان وجهها قد ازداد شحوبا . حاول أن يثنيها عن الخروج . رفضت ، وهناك فى الاستراحة قبضت على يده بشدة . أسندت رأسها إلى كتفه .

- سعيد ، أشعر بدوار خفيف .

تراخت قبضتها ، تهاوت ، ثم جاء ذلك الطبيب الذى أخافها .

* * *

التفت إليها . كان قد قطع نصف المسافة . راقبها برهة . خاف أن يكون الإغماء قد عاودها . أمسك يدها القريبة النائمة على المقعد . انتبهت . التفتت إليه . حدقت فى عينيه ، وبصوت خافت واهن قالت :

- فلنذهب إلى محمود ، أريده الآن .

ضاعت الكلمات من لسانه . ترك يدها . أوقف السيارة على جانب الطريق . ظل يحدق فى الظلام ولا يرى شيئا . عادت إلى استلقائها ببطء . أدار محرك السيارة . انطلق بسرعة كبيرة .

بنفس الصوت الخافت الواهن قالت :

- ما اسمه ؟

- من ؟

- ذلك الطبيب .

- عادل عامر .

- أعطنى البطاقة .

- سأذهب معك .

- سأذهب وحدى .

كانت كلماتها قاطعة لاتترك أى مجال للمناقشة . أعطاها البطاقة . أمسكت بها بإصبعين ، قرأتها عدة مرات . أوقف السيارة أمام منزل محمود ، نزلت .

- ألن تأتى معى ؟

- كلا ، سأتصل بك غداً .

لم ينظر إليها ، كان ينظر إلى الأمام . انطلق مسرعا بالسيارة . تابعته حتى غاب . وقفت بلا حركة ، الدقائق تزحف ببطء فى سواد الليل وضوء خافت ينساب من نافذة حجرة مكتب محمود ، « محمود يعمل ، يكتب رواية جديدة .سعيد غاضب منى . لن يعود إلى منزله ، سيذهب إلى المرسم ، يرسم لى صورة وحشية ، وذلك الطبيب يلتهمنى بعينيه ، يأمرنى و لكنى لن أنصاع له » .

أوقفت أول سيارة أجرة ، عادت إلى بيتها .

* * *

فى يوم ذهبت إلى محمود . دقت على الباب دقاتها الثلاث . انتظرت . مرت لحظة طويلة . كادت تعاود الطرق سمعت صوته يأتى . فتح الباب . وقف أمامها يحدق فيها .

- كنت أفكر فيك .

- أنت دائماً تفكر فى .

« نعم ياحبيبتى ، أنا لاأفكر فى أحد سواك ، فأنت سبب شقائى وأنت من يحمل إلى البسمة » .

ـ ألن تدعنى أدخل ؟

أفسح لها الطريق ، أغلق الباب وتبعها ، تفحصته وهى تجلس ، قالت آمرة :

- ارتر ملابسك بسرعة .

- وهل أنا عارٍ؟

- أنا لا أمزح ، سنخرج الآن ، ثم ما هذا ، ألم تحلق ذقنك منذ شهر ؟

- لا أشعر برغبة فى حلاقتها ، ولا فى الخروج ولا فى رؤية أحد .

- حتى أنا ؟

- لست بأحد ، تعلمين ذلك جيدا ولا أحب أن أكرره .

- لكنك ستأتى معى .

- لن أخرج .

سحب الجريدة . جلس على مقعد مقابل . عيناه تعدوان بين الكلمات . تقفزان فوق السطور . لا يعى شيئا مما يراه . قامت . وقفت أمامه . عقدت ذراعيها على صدرها . تجاهلها . اختطفت الجريدة . ألقتها بعيدا ، جلست على ذراع مقعده . لفت ذراعيها حول عنقه .

- لماذا تغضبنى ، ألست طفلتك المدللة ؟

« أنت حبيبتى ، لست بطفلة ، متى تعلمين ذلك ؟ أو لعلك تعرفين وتتجاهلين » .

- هل عدت إلى صمتك الذى يقتلنى ؟

لمس بأصابعه وجنتها . جذب رأسها برقة . قبل شفتيها ضاغطا رأسها بكفيه ، انتزعت نفسها . كانت ترتجف .

- محمود هل جننت ؟ لماذا فعلت ذلك ؟

- آسف .

جسده كله ينتفض ، عيناه مبللتان ، تضغط قبضته على ذراع المقعد بقسوة ، كرر :

- آسف .

لم تسمعه . ردها للخلف سنوات وسنوات . سنوات مضت ولم يعد باستطاعتها حسابها . كأن ما حدث من عصور ماقبل التاريخ ، لذا نسيته . لكنه الآن ماثل أمام عينيها . فى حجرة الصالون ضيوف جاءوا لخطبتها . كانت سعيدة تشعر أنها أنثى . أصبحت الآن كبيرة ، عروسة ، والعريس تعرفه جيدا . أحد الأقارب . لا اعتراض لديها لكنها لم توافق بعد . الأم تعد الشاى فى المطبخ . الأخ يجلس مع الضيوف . جو بهيج يملأ البيت . دخلت إلى أبيها فى غرفته تتعجله لمقابلتهم . نور الحجرة مطفأ . يجلس وحيدا فى الظلام . ضوء خافت يتسرب من باب الغرفة . كان يرى سعادتها التى لم تستطع أن تداريها . همست له :

- أبى ، الضيوف يسألون عنك .

أمسك يدها برفق . أجسلها على رجليه كما تعودت . ضمها إلى صدره .

- كبرت . صرت عروسا .

صمت برهة وهو يربت على خدها .

- ما رأيك ؟ هل توافقين ؟

لم تنطق . أجابته الحرارة المنبعثة من خدها .

- إذن سيأخذك منى .

ضغطها فى صدره ، يلثم شفتيها . ارتعدت . تملصت منه . جرت إلى حجرتها محاولة أن تتماسك . أن تلملم أجزاءها ، عقلها المشتت ، أن تسيطر على رجفة جسدها . بعدها رفضت الخطيب وكل خطيب جاء بعده .

الآن تقف صامتة . تضغط بأناملها على جبهتها . مغمضة العينين تراجعت إلى الخلف . جلست على المقعد تلملم شتاتها . فتحت عينيها مصطنعة إبتسامة .

- ألن تأتى معى ؟

- إلى أين ؟

- معرض فى قاعة إخناتون .

- كما تشائين .

- سأعمل القهوة وأنت ترتدى ملابسك ، لا تنس أن تحلق ذقنك .

- أوامرك .

ابتسمت بدلال وهى تسحب يده .

- هكذا أنت محمود الذى أعرفه ، عاقل ورزين ، ولا يرفض لى طلب .

أمام المرآة تأمل البياض الذى هزم سواد شعره ، ابتسم بمرارة ، « عاقل ورزين ، إلى متى سأظل عاقلا ورزينا ؟ هل جننت لأننى أحببتك ؟ لماذا تنكرين على الجنون ؟ ألا تحبين المجانين » قاطعه صوتها المرتفع قادما من المطبخ .

- ارتد ملابس ثقيلة ، الجو بارد بالخارج ، لاتنس الكوفية ، قد تمطر .

- حاضر .

فى الطريق شبكت ذراعها بذراعه . سارا صامتين . ساهمة كانت . تستجمع ذكرى بعيدة ، تمتمت فى شرودها :

- كنا نسير أنا وأبى هكذا دائما .

التفتت إليه بعينين ضاحكتين .

- زميلاتى كن يغرن منى ويحسدننى .

« لست أباك . إلى متى أذكرك بذلك ؟ هل تتعمدين أم هى تلقائيتك المرعبة ؟ »

- فى يوم قابلتنى إحدى زميلاتى ، كنت أسير مع أبى . فى اليوم التالى قالت رأيتك بالأمس ، (البوى فريند بتاعك أمور) ، قلت هو أبى . قالت أخطبيه لى . هممت بضربها فانطلقت تجرى حتى اصطدمت بمدرس الإنجليزى ، أخذ يعنفها ونحن نضحك من بعيد .

كان يبتسم ، يحيطها بعينيه المفعمتين بالحنان . « فلتسعدى يا صغيرتى ولتضحكى ، يكفينى أن أكون بجانبك ، أرى ضحكتك حتى لو كنت أباك » .

- محمود ، لماذا أنت صامت ؟ هل أنا ثرثارة ؟

ضحك ضحكة عالية مطوحا رأسه للخلف .

- نعم .

قطبت جبينها وزمت شفتيها ، استكمل كلامه :

- لكنى أعشق ثرثرتك هذه .

احتضنته بعينيها . لكزته بخفة . ضغط كفها وهما يدلفان من بوابة القصر .

* * *

لوحات كثيرة اصطفت على جدران القاعة الواسعة . بضعة أشخاص تناثروا يتأملون الخطوط والألوان . ثمة حبيبان يتعانق كفاهما ويتناقشان بهمس فى الطرف البعيد . ابتسمت وفى عينيها مرت سحابة حزينة . تركت يده ومضت تنتقل من لوحة إلى أخرى . تنساب مع الألوان . تندمج مع الخطوط وتنفصل . جذبتها لوحة لرجل عجوز . أدهشها بشدة الشبه بينه وبين والدها ، دققت النظر إليه ، أحست أنه يشبه محمود . احتارت ، اقتربت أكثر من اللوحة . هذا الوجه تعرفه جيدا . لكن من هو ؟ أخذت تنظر إليه مرة من اليمين ومرة من اليسار ثم تواجهه . لم تشعر أن أحدا يقف خلفها يراقبها . عندما استدرات تلاقت العيون . ارتبك واغتاظت . خلفته وراءها تنادى محمود . رآه محمود من بعيد فصاح مهللا :

- سعيد !

التقيا فى عناق حميم .

- أين أنت يارجل ؟ وأين أراضيك ؟

- بل أين أنت ؟ أنا فى منزلى طول الوقت ولم أغير عنوانى .

- كنت مسافراً .

أسندت ظهرها للحائط تتابعهما ، سألها محمود :

- أتعرفتما ؟

غرس سعيد عينيه فى عينيها وهو يقول :

- كنت على وشك التعرف عليها لولا استغاثتها بك .

اغتاظت بشدة وردت باندفاع :

- كنت سأضربك لولا أنك صديق محمود .

لف محمود الضاحك ذراعه حول كتفيها والذراع الأخرى حول كتفى سعيد . ربت عليهما فى آن واحد وهو يقول :

- سأدعوكما إلى العشاء فما رأيكما ؟

ردا فى نفس اللحظة كأنما يحفظان الرد :

- موافقون .

فى حضن محمود أحسا بالأمان . أحسا أنهما يتقاربان وأن الحب يجمعهما . فى طريق الخروج تعرف أحد الزوار على محمود فجاء يسلم عليه ويثنى على روايته الأخيرة التى طرحت فى السوق . كانت فرصة اغتنمها سعيد للانفراد بها . أحست بنظراته تخترقها .

- لماذا تنظر إلى هكذا ؟

- وكيف ينظرون إلى الآلهة ؟

اشتعلت وجنتاها ، خانتها سرعة البديهة ، تلعثمت .

- ألا تعلمين أنك فينوس ، فينوس الشرق ؟

قاطعهما صوت محمود :

- هيا بنا حتى لا نتأخر .

* * *

ظلت لعدة أيام تذكر ذلك اللقاء تعجبت من وضوح صورته فى عقلها ببشرته السمراء وشعره الخشن ، وعينيه السوداوين المتعبدتين ، وصلاته الصامتة فى محرابها طوال العشاء . قلبها يرفرف بجناحين صغيرين بدأ ينبت فيهما زغب كلما تذكرته . تشعر بخدر يسرى فى جسدها تستسلم له فى نشوى . تملكتها رغبة قوية فى أن تراه مرة أخرى ، ضاقت بنفسها ، « يالى من تافهة حمقاء ، ما الذى يدعونى أن أفكر فى هذا السعيد ؟ لعله قد نسى تماما ذلك اللقاء ، ولماذا يذكره ؟ لماذا أذكره أنا ؟ عيناه جميلتان لهما بريق نجمين فى السماء ، أصابعه رشيقة ، مالى برشاقة أصابعه ؟ ومالى به ؟ من المؤكد أن محمود يعرف عنوانه ، أو كيفية الاتصال به ، سيغضب محمود أن سألته ، لا أحب أن أغضب محمود ، هل نلتقى مرة أخرى ؟ أشعر أننى سألقاه ، قريبا سألقاه » .

* * *

كان صباحا ككل صباح . ارتدت ملابسها ووقفت تمشط شعرها . رأته أمامها يطل من المرآة ، ابتسمت معاتبة ، « لماذا جئت الآن ؟

أنا ذاهبة إلى العمل ، أريد أن أركز تفكيرى ، دعنى وإلا .. وإلا ماذا .. دعنى الآن فقد تأخرت . »

فى ميدان التحرير جموع البشر تتصارع ، تجرى وراء الأتوبيسات المكتظة . تتخبط يتصاعد زفيرها وعادم السيارات . يختنق الميدان رغم اتساعه . تشعر بضيق فى صدرها . تتمنى لو تجرى إلى مالا نهاية . بعيدا حيث الأفق . حيث تتعانق السماء والأرض . هناك ستجد هواء ، تملأ رئتيها ، بساتين ومروج ، تستنشق العبير وعطر الزهور ، تفتح قلبها للحياة .

- ماذا تفعلين هنا ؟

- سعيد ! مستحيل !

- هذا صباح جميل ، بل أجمل صباح .

- إننى أختنق فى هذا الزحام ، أنا ذاهبة إلى العمل .

- هل أنت متعجلة ؟ ألا يمكنك البقاء ولو قليلا ؟

زرت عينيها صامتة ، تأملها وهى تفكر .

- أريد تليفونا .

- بسيطة ، هيا بنا .

فى خمس دقائق كانت قد اتصلت بالعمل معتذرة عن الحضور.

الآن تخلصت من عبء كان يثقل قلبها . اليوم إذن مرح . تمتمت بهدوء ورضا :

- هيا بنا إلى المعبود حابى نؤدى صلاة الصباح ، أين سيارتك ؟

- أصيبت بوعكة صحية فأدخلتها المستشفى .

- عليك أن تجد لها دارا للمسنين .

أمسك يدها ليعبرا الشارع فارتاحت فى كفه ونامت .

* * *

جلسا صامتين فى حضرة المارد الأسمر . شمس الشتاء الدافئة تحنو عليهما . تلفهما بشعاع ذهبى يلتمع على سواد شعرها . عيناها مسبلتان فى ضراعة والإله العظيم تجرى دماؤه بالحياة أمامهما . فى المدى شاطئ آخر تتمايل عليه الأشجار . تتراقص غصونها . شمس أخرى حنون وقمر من فضة . عصافير تشدو بألحان الحب . عشاق متعانقون على نجيل أخضر . دنيا موشاة بورود وزهور . همست لنفسها :

- هل يمكن أن نذهب للشاطئ الآخر ؟

صوتها الهامس قطع عليه صمته وتأمله .

- بسيطة نركب الأتوبيس النهرى .

التفتت إليه بدهشة .

- الأتوبيس النهرى لايذهب إلى الشاطئ الآخر ، بل يذهب إلى الجيزة .

- والجيزة ، أليست فى الشاطئ الآخر ؟

- الشاطئ الآخر ليس له مكان ، لكنك مازلت صغيرا ولهذا فأنت لاتعرف .

غاظه كلامها . جرحه . أحسه سنا مدببا خدش رجولته .

- إذن أنا صغير ، هل هذا رأيك ؟

ضحكت مشاكسة مسرورة بإغاظته .

- ألست أصغر منى بعامين كما قال محمود ؟ إذن يمكن أن أتبناك ومن الآن تنادينى بأمى .

قامت مسرعة لتنهى الحديث .

- هل تسابقنى إلى المرسى ؟

- أسابقك .

جريا متجاورين ثم أمسك كل منهما بكف الآخر .

أمضيا يوما حافلاً يدوران فى شوارع وحوارى مصر القديمة ، فرحان .

ويتأملان ويتناقشان ، الفن القبطى ، الفن الإسلامى ، الفن الفرعونى ، الصداقة ، الحب ، أخر رواية لمحمود ، أى كلمة تثير نقاشا وجدالا . تصر على رأيها . تتشبث . تغضب . تضحك . يراقبها منبهرا بكل تلك الطاقة والحيوية . متأكدة من مراقبته لها وتعرف أنها تمسك بزمام الأمور .

على باب كنيسة مارجرجس وقفت لحظة خاشعة ، ضمت كفيها إلى صدرها . ظنها تمثل دورا من باب المزاح . أدهشه أنها انتقلت إلى عالم آخر ولاتشعر بوجوده . تخطو إلى الداخل خطوات متزنة . تتنسم رائحة البخور منتشية . تتقدم تستحوذ عليها رهبة وقدسية . أمسكت بالشمعة تشعلها وهى تتمتم تمتمات مبهمة بصوت منغم . أبانا الذى فى السماء . غرست الشمعة فى الرمل مبتهلة . تتماوج الرمال أمامها . يأتيها نداء البحر طاغيا . وشيشا حبيبا . تنسحب ببطء بظهرها . عيناها معقلتان على صورة السيدة العذراء . تخرج . تجلس على درجات السلم مبهورة الأنفاس . كان يحدق فيها فرحا باستعادتها من عالم مجهول . لكنه لم يستعدها . كانت مأخوذة هائمة . بصوت خافت مرتعش همست :

- البحر ينادى .

لم يفهم ما تعنيه ، ظل صامتا منتظرا .

- البحر ينادينى ، لابد أن ألبى النداء .

انتبهت لوجوده ، ابتسمت .

– لا بد أن أعود إلى البيت فأنا مجهدة ، تركته ومضت ، كادت تعدو وكأنها تهرب من وحش مخيف .

* * *

لعدة شهور كان يحتار أمام تصرفاتها وتقلباتها ، ثم تعوّد عليها بكل متناقضاتها ودون أن يفهم . حاول لكنه فشل . اعتبرها كالبحر الذى تعشقه ويعشقه معها . لابد أن يحبه كما هو لا فى لحظات صفائه فحسب . لكن الأمر الآن يختلف . الآن هو يحبها . يشعر أنها ملكه . ملكه وحده . يغار عليها من كل شئ . يغار من الأفكار التى تسبح فى رأسها ولا يعلم عنها شيئا . فيما تفكر وبم تشعر . لا يحتمل عدم فهمها . أسبوع مر منذ ليلة الأوبرا ، لم تتصل به . حاول عدة مرات الاتصال بها فى البيت لم يجبه أحد . سأل عنها فى العمل فعلم أنها فى إجازة مرضية . « هل هى مريضة حقا ؟ كيف تتركنى فى هذه الحيرة ؟ ماذا تفعل الآن ؟ هل أغضبتها لأنى لم أذهب معها عند محمود ؟ كنت حانقا ، لماذا أصرت على الذهاب إلى محمود ؟ لماذا غيرت رأيها فجأة ؟ لماذا محمود بالذات ؟ هل تحبه ؟ وهل يحبها ؟ نعم ، أنا متأكد أنه يحبها ، أما هى فما الذى يدور فى عقلها وقلبها ؟ أجدها تحبنى ، لاتقوى على فراقى ، ثم أجدنى لا أعنى لها شيئا ، مجنونة هى ، بل أنا المجنون ، ومحمود يحبها ، وهى لاتحب أحداً » .

كان يجلس على الأرض مستنداً بظهره إلى الحائط مادا ساقيه إلى الأمام . ينتصب أمامه حامل اللوحات ماردا فارع الطول ، تلتصق بصدره مساحة من الورق خدشت بخطوط متعرجة ملتوية ملتفة وبقع من ألوان متنافرة . شخص إلى اللوحة من مكانه . كان وجهها يطل عليه من بين الخطوط وسرعان ما يختفى وراء بقعة من بقع الألوان ليظهر من جديد فى ركن آخر . ثم يباغته ويختفى ثانية ، « قد تكون مريضة ، لكن أين هى ؟ فى مستشفى ؟ ذهبت إلى محمود أو إلى أحد أقاربها ؟ محمود يعرف ، لابد إنه يعرف » .

لمّ ساقيه ، وقف ببطء . تقدم إلى اللوحة . أمعن النظر فيها ، باصبعين أمسك منتصف طرفها الأعلى وجذب . ترك المرسم وقصاصة من الورق تتدلى من اللوحة وتتأرجح فى الهواء . مضى لا يعرف إلى أين .

* * *

لثلاثة أيام من ليلة الأوبرا لم تخرج من البيت . لا ترد على التليفون . لاتفتح الباب لأى طارق . تستعذب وحدتها . تدور فى البيت من حجرة إلى أخرى . تقتات على الذكرى . فتحت الحجرتين المغلقتين ؛ حجرة أبيها وأمها اللذين تركاها ورحلا إلى عالم الأموات ؛ وحجرة أخيها الذى تركها وهاجر إلى بلاد الجليد ثم تباعدت خطاباته حتى ندرت . أخرجت صندوق الصور تقلّب فيها . تتعرف على أشخاص لم ترهم من سنين . تتساءل إلى أين أخذتهم الحياة وكيف صاروا . صور

وخطابات . قصاصات ورق كلها صماء لاتتكلم ولاتسمع ، سنوات تنساب من بين أصابعها . شعيرات بيضاء تتسلل . دوار يعاودها من آن إلى آخر . وحدة موحشة تتعايش معها . فراش بارد تتقاسمه والأشباح . الجليد يحيط بها ؛ ينفذ إلى أعماقها ، أحست باحتياج للدفء . تحسست الفراش عدة مرات . قذفت الوسادة إلى الأرض . داستها بقدمها . مدت يدها المرتعشة إلى الحقيبة . أخرجت بطاقة صغيرة . قرأتها عدة مرات ، ألقتها على السرير وانطلقت إلى الخارج .

* * *

في حجرة الانتظار تهالكت على مقعد في أبعد ركن . كل شئ في الحجرة الواسعة يوحي بالصرامة ، الأثاث ، ولون الجدران ، والستائر الداكنة المسدلة على النوافذ . تناولت إحدى المجلات الموضوعة على منضدة قريبة . قلبت صفحاتها . تابعت الجالسين في أماكن متفرقه . ألقت المجلة بإهمال على المنضدة . وضعت ساقا على ساق ثم أنزلتها . التقطت مجلة أخرى . حدقت في المرأة الباسمة على الغلاف . أعادتها إلى مكانها . انتبهت للتمرجى أجش الصوت :

- دورك ياهانم .

قامت . عدلت ملابسها . تقدمت بخطى قصيرة بطيئة . كان التمرجى قد سبقها إلى الباب . دق ثم فتح الباب فارداً ذراعه يدعوها

للدخول ، فى صدر الحجرة كان يجلس إلى مكتبه . عيناه الآن هادئتان جادتان . قام يصافحها بابتسامة ودود . جلست على مقعد أمام المكتب .

- هل تذكرنى ؟

- كيف لا وقد أفزعت كل من بالحفل ؟

- ليس إلى هذا الحد ، هل تشك فى وجود مرض بعينه ؟

تشاغل بقلم التقطه من أمامه . تكلم بصوته الوقور ، سأل بضعة أسئلة عن حالتها وما تشعر به ، أشار إلى ستارة تخفى سرير الكشف .

- لنر ، تفضلى .

قامت متمهلة . رقدت على السرير تختبئ تحت الملاءة البيضاء . تقدم نحوها واضعا السماعة فى أذنيه . كشفت صدرها . أدارت وجهها إلى الجانب الآخر تفاديا لعينيه . أغمض عينيه وتسمع دقات قلبها . خلع السماعة .

- بسيطة .

فتحت عينيها متسائلة . أمسك يدها يعينها على النهوض . جلست . أخذ رأسها إلى صدره . سكنت برهة ووشيش بحر يهدهد أذنيها . خده يرتاح على شعرها . سحبت جسدها . دفعته بخفة . تراجع خطوة للوراء . نزلت من السرير بحرص حتى لاتلامسه . جلست على

المقعد . كان مايزال يقف هناك . أمسكت حقيبتها . فتحتها تعبث بمحتوياتها . تقدم إلى المكتب . جلس . ظلا صامتين . هو ينثر بضع كلمات على ورقة أمامه ، وهى تعبث بالحقيبة ، مد لها الورقة .

- نحتاج بعض التحاليل ، بعدها نقرر العلاج .

أمسكت الورقة . تطلعت إليها . وضعتها فى الحقيبة . ابتسمت شاكرة . تصافحا . أحست دفء يده . ارتج جسدها . بعد خروجها أطبقت كفها تستبقى دفئه فى يدها .

* * *

ليل القاهرة يسبح فى ضوء الكهرباء . سخونة الهواء لم يلطفها غياب الشمس . الجو مشبع بالرطوبة . ثمة مجهول يضغط على صدرها . تتنفس بصعوبة . على محطة الأتوبيس لم تستطع الانتظار طويلا . كان جسدها يرتجف فاستقلت سيارة أجرة .

على باب محمود دقت دقات واهنة . أسندت رأسها إلى الجدار . عندما فتح الباب هاله منظرها . وجه شاحب وجسد واجف ، أسندها . قادها إلى الأريكة . تهالكت عليها . حمل ساقيها إلى الأريكة . ربت على خدها .

- استريحى .

قرأت الخوف فى عينيه . فردت جسدها الواهن وهمست :

- أنا بخير لاتنزعج .

اختفى من أمامها لحظة فصرخت :

- محمود !

عاد وفى يديه وسادة .

- لاتتركنى وحدى .

وضع الوسادة تحت رأسها . قلبه ملهوف ، « ماذا أصابك ياحبيبتى ؟ أين ابتسامتك العذبة وانطلاقة روحك ؟ » جلس على الأرض بجوار الأريكة .

- مالك ؟

- لاشئ .

- هل أنت مريضة أم غاضبة ؟ فى هذا الحر جسمك يرتعش !

- لست غاضبة بل خائفة .

- مم تخافين ؟

- أنا قادمة من عند الطبيب .

- الطبيب ؟ إذن مريضة . بم تشعرين ؟ ماذا قال لك ؟

- لاشئ . يريد بعض التحاليل وبعدها يقرر العلاج .

- هل هذا ما يخيفك ؟

- لست أدرى مم أخاف ، شعرت بخوف وضيق فى صدرى فهربت إليك .

يمسح على شعرها ويربت على يدها ، نظرته الحانية تغطيها ، تلفها . تتمنى أن تمنع عنها كل سوء ، « ما الذى يخيفك ياحبيبتى ؟ تخافين المرض ؟ أم الزمن ؟ أم تخافين من نفسك ؟ من تلك الجنية الساكنة بداخلك والتى تناديك للبحر دوما ؟ تهربين إلى ؟ أنا أفديك بعمرى ؛ وهل بقى من العمر شئ ؟ فقط بقايا شمعة تحتضر . »

- أهدئى الآن ، حاولى أن تنامى . هل أحكى لك حكاية قبل النوم ؟

مبتسمة مستمتعة بحنانه يحيطها الأمان .

- بشرط ألا يكون فيها عفريت أو غول .

-ليس فيهاغول ولاعفريت ، فيها عصفورة صغيرة جميلة جدا ، وتعرف إنها جميلة . كل الطيور تحبها . كانت عصفورة طيبة ، تحب كل شئ ، الطيور والأشجار والزهور . والشمس والقمر . حتى الوحوش كانت تحبها . قلبها الصغير لايعرف إلا الحب . لكنها كانت تسمع صوتا يناديها ؛ لا تعرف من أين يأتى . لم يكن أحد يسمعه غيرها . كانت تخاف منه وتأنس إليه . يأمرها أن تذهب إليه . سألته إلى أين ؟ قال خلف بحر السماء ، حيث أسكن ، فهيا إلى الخلود . قالت له جناحاى لايقويان على الوصول خلف بحر السماء . قال حاولى . فى

أول الأمر خافت ، ثم حاولت مرة ، ومرة بعد مرة الجناحان حملاها وارتفعا . حلقا بها فى سماوات وسماوات . غابت إلى الأبد ولم تعد أبدا لكل من أحبوها .

راحت فى النوم . لم تسمع آخر الحكاية . لكن وجهها كان هادئا تسبح على صفحته بسمة خفيفة . عدل الوسادة تحت رأسها . قبل جبينها وأطفأ النور . دخل مكتبه ، جلس على مقعده الحبيب أمام فينوس الشرق . كانت هناك تجلس فى هدوء ؛ تتدلى خصلة سوداء على جبينها ونظرة غامضة فى عينيها « حبيبتى ؛ لو أعرف ما بك . لو أعرف مايفزعك ! لو أستطيع مساعدتك ! لو أستطيع أن أدخلك إلى صدرى ، أخفيك عن كل العيون أحميك مما تخافين . »

* * *

على باب العيادة وقفت لحظة . قلبها ينتفض ، يدق دقات متسارعة غير منتظمة . كانت قد مرت على محمود لتصحبه معها فلم تجده بالمنزل . فكرت أن تمر على سعيد ، ثم تراجعت وقررت أن تذهب وحدها . ها هى على بابه ، لاتدرى مالذى يريده منها . استجمعت نفسها ودخلت ، كان ينتظرها ، منذ أن كانت عنده وهو ينتظرها . ثلاثة أيام ؛ كل يوم ينتظر حضورها . يحدث نفسه عنها « هل تأتى ؟ هل غضبت ؟ لماذا لم تأت إلى الآن ؟ لابد أنها تنتظر نتيجة التحاليل ، قد تذهب إلى طبيب آخر ، لكنها لابد أن تأتى ، لماذا أهتم بها كل هذا

الاهتمام ؟ أشعر أنها لى . إن كلا منا قد خلق للآخر ، وهذا الذى كان معها فى الأوبرا ، من يكون ؟ خطيبها ؟ زوجها ؟ لايوجد خاتم فى يدها ، أخوها ؟ لا ، ليس أخاها وإلا لجاء معها ، حبيبها ؟ هو إذن حبيبها ، ماذا يعمل ؟ من يكون ؟ بل من تكون هى حتى تشغلنى إلى هذا الحد ؟ لماذا هى ؟ منذ متى أهتم بالنساء ؟ الكلية مليئة بالطالبات ؛ المستشفى مليئ بالزميلات ؛ لم ألحظ أيا منهن قط . وهذا الذى يطوقها بذراعه ما علاقته بها ؟»

قاطعته دقاتها الثلاث على باب الغرفة . كانت العيادة خالية عند دخولها . أشار لها التمرجى وهو جالس .

- تفضلى ، لا أحد عند الدكتور .

تقدمت وطرقت الباب ثلاثا ، جاءها صوته الوقور من خلف الباب :

- أدخل .

فتحت الباب ببطء ، أطلت برأسها من فتحة صغيرة . تهلل وجهه حين وقعت عيناه عليها .

- تفضلى .

دخلت ، أغلقت الباب خلفها . ترك مقعده وتقدم إليها . صافحها بحرارة . ارتبكت . أشار إليها أن تجلس . جلس أمامها .

- ما الأخبار ؟ كيف حالك ؟

ظلت صامتة ، فتحت حقيبتها وأخرجت مظروفاً قدمته له . فتح المظروف وأخرج منه أوراقا . وضع النظارة المتدلية على صدره بسلسلة على عينيه متفحصا الأوراق . من تحت النظارة ودون أن يحرك رأسه رفع عينيه إليها .

- هل هو أخوك ؟

- لا ، هو صديق .

- فقط ؟

- ماذا وجدت فى هذه التحاليل ؟

عاد إلى الأوراق مرة أخرى . أعاد قراءتها . طواها ووضعها بحرص فى المظروف . قدمها إليها ، ضحكت .

- هل الحالة ميئوس منها ؟

ابتسم وعيناه متعلقاتان بوجهها .

- بل هى أبسط مايكون .

قام إلى المكتب . كتب أسماء بعض الأدوية . شرح لها كيفية إستعمالها . شكرته وقامت للإنصراف . مد يده يصافحها . جذبها إليه . أطاعت . رفع رأسها إليه محدقا فى عينيها ، همست :

- ماذا تريدين منى ؟

- لا أريد شيئا .

- لماذا تطاردنى إذن ؟

- أنا لا أطاردك . ولا أفهم مايحدث ، لكن هناك شئ لا أعرفه يجذبنى إليك ويربطنى بك .

- أرجوك أن تدعنى .

أسكتها بقبلة على شفتيها أحست لذتها تسرى فى جسدها . خدر ينساب فى كل أعضائها لم تذق حلاوته من قبل . دفعته عنها ؟ همست بين يديه :

- دعنى وشأنى أنا أخاف منك

أنسلت من بين ذراعيه . أسرعت إلى باب الحجرة . وقفت . استدارت بدلال قالت :

- تصبح على خير .

* * *

أدرات المفتاح فى باب منزلها . دخلت وأضاءت النور فانبثق الضوء يملأ كيانها . ألقت الحقيبة على مقعد قريب . رفعت سماعة التليفون . أدرات القرص وهى تتفحص محتويات الصالة كأنها تراها لأول مرة . كل شئ بدا مختلفا . قطع الأثاث تبتسم لها . ترحب بها .

الشوق يملأ قلبها وكأنها عائدة من سفر طويل .

- ألو ، محمود ، أين أنت ؟

- أنا هنا ، كيف حالك ؟

- مررت عليك ولم أجدك ، كنت أريد أن تذهب معى إلى الطبيب .

- هل ذهبت إليه ؟

- نعم أنا قادمة من عنده .

- خيرا ؟

- طمأننى ، قال إنها مسألة بسيطة ووصف بعض الأدوية .

- أراك فى حالة طيبة ، بل ممتازة .

- وهل تليفونك بالتليفزيون ؟!

- أراك بقلبى .

- هذا كلام صبية صغار ، دعك منه ، المهم كيف حالك ؟ وما أخبار روايتك ؟

- أنا سعيد جدا لأنى أشعر بسعادتك .

- هكذا تعود لكلام الصبية ، إذن تصبح على خير ، ألقاك غدا .

- سأنتظرك .

لأول ليلة من أسبوع مضى تعرف طعم النوم العميق . فى الحلم يأتيها البحر بوشيشه الحبيب تنساب أمواجه بين قدميها . تدغدغها نعومة الزبد الأبيض . تسبح وتسبح .

* * *

أطلق العنان لساقيه تقودانه حيث شاءتا . صمت الليل يطوقه من كل اتجاه . نباح يأتى من بعيد ، يخفت ثم ينقطع . يقطع الشوارع عاقدا ذراعيه خلف ظهره ، ناظرا للمعة الضوء المنبعث من أعمدة النور على الإسفلت . قدماه تعرفان الطريق . تجبرانه على السير فيه . هل كان لايعرف إلى أين هو ذاهب ؟ أم كان متواطئا مع قدميه على ذلك ؟ على كورنيش النيل وقف أمام الشجرة العتيقة الضخمة تحتضن فى جوفها كنبة من الرخام . هذا هو محرابها الذى اتخذته للصلاة للإله حابى . تجلس شاردة لاتشعر بشئ غير جسد الإله الممدد أمامها . كان يغار منه . يوقن من أنه يسلبها . مرة حاول أن يمسك يدها وهو جالس إلى جوارها . ثارت . قالت غاضبة :

- يجب أن تتأدب فى حضرة الآلهة ، ألا تشعر بالقدسية .

لم يتوقع رد فعلها هذا . ظل يحملق فيها . غضب . تركها ومضى . لم تتأثر ، ظلت مكانها . وظلا أسبوعا متخاصمين . لم تحاول

الاتصال به . جن جنونه . قتله الشوق . ذهب إلى عملها . قابلته بلهفة وشوق وكأن شيئا لم يحدث . لم يعاتبها على هجرها ، ولم تسأله عن غيابه ، طلبت له فنجانا من القهوة حتى تفرغ من عملها ثم انطلقا فى رحلة من رحلاتهما . زارا أحد المعارض ، بعدها ذهبا إلى قهوة الفيشاوى فى الحسين . جلسا يشربان الشاى بالنعناع ويتحدثان ويتمازحان ، تشاكسه ويضحكان . أوعزت إليه أن يطلب شيشة . أدهشه طلبها ولكنه أذعن وطلب ماتريد . وضعت ساقا على ساق متقمصة دور المعلمين . أمسكت مبسم الشيشة . جذبت نفسا . اجتاحتها عاصفة من السعال الذى اشتد واشتد يمزق صدرها ويدمى عينيها والدموع تنهمر منهما . كانت تختنق وهو ينظر إليها بفزع وإحساس بالعجز . بدأت نيران حلقها وصدرها تخفت ، لمحت منظره المروع ، انفجرت فى الضحك حتى عادت للسعال من جديد ودموعها تنسال على وجنتيها . أخذ بعضا من كوب الماء ورشه على وجهها حتى استطاعت أن تستعيد هدوءها ، لكنها كلما نظرت إليه عادت للضحك من جديد . جاءت السيدة العجوزة مكتحلة العينين . جذبت الكرسى وجلست إلى منضدتهما دون دعوة أو استئذان . أخذت مبسم الشيشة وجذبت نفسا عميقا . نفثت الدخان عاليا وهى تتطلع إليها . قالت بصوت مبحوح قادم من تاريخ عتيق : « ما اسمك ياصبية ؟ » تملكها الخوف منها وكلما هز أذنيها الصوت المنبعث من خرزات العقود الكثيرة المتدلية من رقبة العجوز كبر خوفها ، رن الصوت العجوز المبحوح :

« اطردى الخوف وافتحى ذراعيك للحياة » . ثم نظرت إلى سعيد وقالت وهى تتابع حلقات الدخان المتصاعد بينهما والتى حولت كلا منهما إلى صورة ضبابية : « ليس لك نصيب فيها ، فاصبر يا ولدى . » تركتهما وقامت ، وكما جاءت دون دعوة ، رحلت دون وداع . أحسن بشئ يثقل على قلبه ورأى الخوف فى عينها قال :

- هيابنا نذهب إلى أى مكان آخر .

- بل سأذهب إلى منزلى .

أذان العشاء من جامع الحسين ينساب مترددا فى أرجاء الميدان ، قامت وهى تتمتم وتردد معه كلمات الآذان ورجفة تمتلك قلبها .

* * *

جلس فى حضن الشجرة ، برودة الرخام تسربت إلى بدنه فارتجف . خرير الماء ينعش حواسه . الإله المارد ازدادت سمرته فصار أسود تلمع على بشرته خطوط الضوء الخافت ، « ها أنا بين يديك ، فى محراب صلاتك الذى جعلته لك ڤينوس ، فهل تقبل صلاتى ؟ اتضرع إليك أن تعيدها لى . أنا لم أعد احتمل غيابها أكثر من ذلك . » قام باطمئنان ، وهدوء مايتسلل إلى قلبه ،سار متمهلا فى طريقه إلى محمود .

* * *

اندهش محمود عندما سمع الدقات الثلاث ، نظر إلى

الساعة ، الواحدة صباحا . « هل يمكن أن تكون هى ؟ لابد أن هناك شيئا خطيرا جعلها تأتى فى مثل هذه الساعة ، كيف وقد كانت تحدثنى من ساعتين فقط وكانت بخير وسعيدة ؟ ماذا أصابها ؟ » لم يعرف كيف وصل إلى الباب وكم استغرق هذا من وقت ، فتح الباب بسرعة ، وجد سعيد يقف أمامه .

- سعيد ؟ ماذا بك ؟

دخل سعيد ، وقف لحظة يلقى نظرة على ماحوله ، ألقى بجسده على أقرب مقعد .

- سعيد ! تكلم ، ماذا هناك ؟ من أين أتيت ؟

- من المحراب .

- أى محراب ؟ أنا لا أفهم .

- أنا أيضا لا أفهم ، لاتنزعج ، لاشئ على الإطلاق ، فقط جئت أسأل عنها .

- فى مثل هذه الساعة ؟

- منذ أسبوع لا أعرف عنها شيئا ، منذ ليلة الأوبرا ، بعد أن أوصلتها إليك لم أرها .

- ليلة الأوبرا ؟ أوصلتها إلى ؟ أنا لا أفهم شيئا ، حاول أن تهدأ ،

سأصنع لك كوب شاى ثم نتحدث .

- هل ذهبت إلى الطبيب ؟

- نعم .

- نفس الطبيب ؟

- لا أعرف أى طبيب تقصد .

- ذلك الذى قابلناه فى الأوبرا .

- عدنا إلى الأوبرا . لاأعرف ، سأصنع الشاى .

تركه واتجه إلى المطبخ . ملأ البراد ووضعه على النار . وقف ينظر إلى اللهب ، « ما الذى يثير سعيد من ذلك الطبيب ؟ ما حكاية ليلة الأوبرا هذه ؟ لم تخبرنى عنها ، أصبحت الآن تخفى عنى أشياء وأشياء . كثيرة تلك الأشياء التى تخفيها. لماذا ياصغيرتى ؟ أنا لا أريد إلا الاطمئنان عليك » . لاحظ أن سعيد يقف أمامه ، سأله سعيد بصوت مرتاب :

- هل ذهبت إلى طبيب يدعى عادل عامر ؟

- لا أدرى ، لكنى أسمع عن هذا الطبيب ، إنه كفء وهو أستاذ بالجامعة .

- لايهمنى هذا ، لكنه شخص غير مريح .

ابتسم محمود وهو يصب الشاى .

- غير مريح لمن لها أم لك أنت ؟

- ألا تغار ؟

« نعم ياعزيزى أغار ، أغار عليها منك قبل أى شخص آخر . لا ينقصنى إذن غير هذا الطبيب ، هل تعمدت أن تخفى اسمه عنى ؟ هل كان هذا هو سر خوفها يوم جاءت ؟ »

- ولماذا أغار ياسعيد ؟

- ألست تحبها ؟

« نعم أحبها ، فهل تدافع عن حبى لها أم عن حبك أنت ؟ تعرف أننى لست منافسا خطيرا ، فأنا رجل عجوز لا خوف منى . الآن قد ظهر لك منافس آخر ، لكنه ذو خطر ، لهذا أنت ثائر وغاضب . »

- بالطبع أحبها كابنة ، لوكانت لى إبنة لكانت الآن صديقة لها ، فى مثل عمرها أو أكبر ، على كل حال سوف تأتى فى الصباح فسلها ما شئت .

ضايقته نظرة الشك فى عينى سعيد ، أخذ كوب الشاى واتجه إلى حجرة المكتب .

- يمكنك أن تنام أو تقرأ أو تفعل ماتريد ، أنت تعرف إنه بيتك . فلست غريبا عنه ، تصبح على خير .

أطفأ سعيد النور واستلقى على الأريكة ، كان يحدق فى الظلام فرآها هالة من نور تأتى من بعيد ، تفتح ذراعيها ، تضمه فيغوص فى أمواج النور .

* * *

أيقظتهما دقاتها الرشيقة . أسرع كل منهما ليفتح . وقفا أمام الباب ينظر كل منهما إلى الآخر . عادت الدقات الثلاث تدغدغ آذانهما . تراجع سعيد خطوة إلى الوراء وتقدم محمود . فتح الباب . ما أن رأته حتى تعلقت برقبته وهى تغرقه بقبلات طفولية ، وهو يربت على ظهرها وكتفيها بحنان . لمحت سعيد واقفا وفى عينيه نظرة ملتهبة هتفت :

- سعيد ! أوحشتنى كثيرا .

عانقته بحرارة وراحت تعبث فى شعره بأناملها كما تدلل أمٌ صغيرها ، أزاح يدها بحدة وقال نافد الصبر :

- أين كنت ؟

- كنت مريضة . ألم يخبرك محمود ؟ أرجوك ياسعيد ، لنقضِ ثلاثتنا يوما جميلا دون أية منغصات أو استجوابات ، فلنقرأ بعض الشعر . هيا يا محمود ، أنا أحب الشعر بصوتك .

مرحها أثار فضولهما . عينا محمود لم تكفا عن مراقبتها طول الوقت ، يحاول النفاذ داخلها . يرصد رشاقة حركتها . قصائد الحب التى تختارها ليلقيها ، « أحببت إذن ياصغيرتى ، كيف بهذه السرعة ؟ عيناك تلمعان كبلورتين فى أشعة الشمس ، ضحكاتك المرحة أصبحت مختلفة أكثر عذوبة ، أكثر جمالا ، أكثر أنوثة ، هو الحب ، العشق ياصغيرتى ؛ ياحبيبتى . »

كان سعيد شاردا الوقت كله . يحاول متابعتها ولكنه دائما مايفشل ، فهناك نار تأكل قلبه وعقله . لا يكف عن التفكير فى الطبيب .

هى تلاطفهما وتحاول أن ترضى كلا منهما حتى لايغضب منها « لماذا ينظران إلى هكذا ؟ هل هناك شئ غريب ؟ لماذا غاضب أنت ياسعيد ؟ عيناك تتهماننى بجرم لا أعرفه ، أرجو ألا تغضبا منى فليس لى سواكما فى هذه الحياة ، فأنتما صديقاى وأنتما أهلى . »

مر الوقت بين مرح وغضب ، توتر ومشاكسة . وعندما أبدى سعيد رغبته فى أن يوصلها إلى منزلها رفضت بحسم . قالت مازحة :

– لقد كبرت . يمكننى الاعتماد على نفسى ، سأمر عليك فى المرسم .

تركتهما كل لوحدته غارقا فى أفكاره ، قال سعيد :

– أين تظنها ذاهبة ؟

– إلى منزلها .

- هذا ماقالته .

- هى لاتكذب ، لم تكذب قط .

*   *   *

دقت دقاتها الثلاث على باب المرسم . كان الباب مفتوحا . دخلت . سعيد جالس على الأرض مستندا بظهره إلى الحائط . عاقدا ذراعيه على صدره ، مادا ساقيه أمامه ، لم يتحرك ولم يلتفت . ظل شاخصا إلى المصباح المشدود إلى السقف بسلك رفيع . بهدوء جلست إلى جواره . همس لصورة فى الفراغ :

- هل عدت ؟

- من أين ؟

- لست أدرى ، أشعر أنك سرقت منى .

- لاتكن سخيفا ، أنا هنا .

- أشك فى هذا .

- دعنا ننطلق بعيدا عن هذه الجدران التى تختزن نفسك بينها ، لنذهب إلى الفيشاوى .

- لا أحب أن أرى العجوز .

- أمازلت تذكرها ؟ هي عجوز خرفة .

- احتمال ، لكنى لا أحب أن آراها .

- لنذهب إلى أى مكان تريده ، نخرج أولا ثم نقرر بعد ذلك .

همت على ركبتيها عيناها تفيضان بالعطف . شدت يده تستحثه . كفه تعتصر أناملها . جذبها إليه . طوقها بذراعيه . دفء الجسد اللدن يلهب قلبه فيقفز من مكمنه ، يعدو صارخا . يكتوى بنار ترعى فى صدره . يحاول إخمادها بسيل القبل المحمومة يغرق بها وجهها وجيدها . دهشة وخوف يتملكانها . تتلوى بين ذراعيه دافعة إياه . تتأجج النار وتشتعل القبل . تدفعه بقوة قاسية . تنفلت من قبضته وتتهاوى . يفيق كأنما من كابوس . تزحف متراجعة إلى الخلف . وقفت لاهثة ، تراجعت خطوة وخطوة ، بكفيها أزاحت خصلات الشعر المذعورة عن وجهها . رنت إليه فى دهشة . غريب هذا الإنسان عنها . كان يخفى وجهه بين كفيه . لازال جسدها ينتفض . عقلها يتخبط فى دروب طويلة ضيقة ملتفة حول بعضها ، شبكة من التقاطعات اللامتناهية . « هل أنت سعيد ؟ ماذا أصابك ؟ الآن تخفى وجهك عنى ؟ هل أنت خجل ؟ لاتستطيع أن تنظر إلى ، لا تستطيع أن تواجه عينى ، لست سعيد ، شخص آخر أنت ، لماذا ؟ لماذا ؟ »

مسحت دموعا بللت الخدين . سوت ثوبها . مالت على الأرض تلتقط حقيبتها . بيد مرتعشة خجلة أمسك يدها . جذبت يدها المرتجفة . عيناه لاتقويان على الصمود . همس متضرعا :

- آسف .

عيناها تغوصان في الأرض وصوتها حاسم رغم اختلاجه .

- دعني الآن ياسعيد .

مضت وتركته يتسع من حوله الفراغ ، يسبح في وسط هلامي . قدماه لا تجدان أرضا تقفان عليها ، يهوى ويهوى إلى أعماق مجهولة .

* * *

أمام المرآة وقفت تتأمل نفسها . تضع اللمسات الأخيرة لصورتها التي أحست بالرضا عنها ، « هل يعجب عادل بشعري هكذا ؟ وثوبي هذا هل يروقه ؟ »

انطلقت في طريقها تكاد تعدو ، قلبها يعدو قبلها ، يسبقها بخطوات وخطوات . هذا الطريق الذي قطعته أول مرة خائفة ، الآن تقتحمه مندفعة متحمسة . تتلمس فيه مشاعر لم تعرفها من قبل . تتحسس ملامحه بفضول فهو يفتح لها عالم جديد غريب عليها . تلقاها بذراعين مفتوحتين . على صدره استسلمت تتنسم عبيره ، يرتشف رحيقها ، يسقيها عصيره ، وفي لحظة التحام حميمة تسدل غلالة من

النسيان على الواقع. ينعدم المكان . يندمج الزمان فى لحظة عشق شبقة . يأتى وشيش البحر عبر آلاف الأميال يدغدغ القلوب بالنشوة . تستشعر نعومة الموج ، ليونة الصخر ، لزوجة الطحالب . تتماوج الأجساد فى تناغم سابحة فى ماء المحاياه . تترعرع فى الآفاق زهور ورياحين . تحلق طيور بيضاء تجوب الكون وتعود متألقة .

كان يمسح حبات عرق عن عنقها عندما همست :

- أأقول لك سرا لم أقله لأحد من قبل ؟

- نعم .

- أنا لم ألعب هذه اللعبة من قبل .

- أعرف .

- سوى مرة واحدة .

- لاتخادعينى ، كيف ؟

- عندما كنت صغيرة كان لدى ست أو سبع سنوات وكان لى ابن عم يكبرنى بعدة أعوام ، قال لى سأعلمك لعبة جميلة ، قلت ماهى ؟ قال عريس وعروسة ، فلنصعد إلى الصندرة ، وافقت وصعدنا ولعبنا .

كان غارقا فى الضحك وهو يتحسس خصلات شعرها المتهدل .

- وبعد ؟

- ليس بعد ، رأتنا زوجة عمى ونحن نهبط معا من الصندرة . خبطت على صدرها صارخة . لو علمت أمك لذبحتك . ثم قرصت إذن كل منا وهى تتوعدنا . كدت أموت رعبا من أن تعرف أمى ، ولم أعد لتلك اللعبة مرة أخرى . حتى بعد أن كبرت ظللت خائفة أن تعرف أمى فتقتلنى .

كان مايزال يضحك ، ربت على خدها .

- والآن ؟

- مازالت خائفة .

- مم تخافين ؟

- لست أدرى ، كل ما أعرفه إننى خائفة .

خطفت نظرة سريعة إلى صورة زوجته تحتضن طفليه .

- هذا ما يخيفك ؟

- لست أدرى لكنى أغار منها ، أشفق كثيرا عليها .

- أنا أيضا أشفق عليها ولكن لأسباب مختلفة .

- ماهى ؟

- ليس الآن . قد أحكى لك يوما لكن الآن لا أحب أن يكون معنا ثالث .

* * *

لأسابيع كثيرة لم تتصل بسعيد ، لاتزوره فى المرسم ولا فى المنزل . لاتذهب إلى أى مكان يحتمل وجوده فيه . هو أيضا لم يحاول الاتصال بها . يشتاق إليها . يجلس ساعات طوال يستعيد لحظاتهما معا ، رحلاتهما فى المعارض والمتاحف ، شوارع القاهرة التى كانا يقطعانها طولا وعرضا سيرا على الأقدام دون أى شعور بالتعب . أحاديثهما الكثيرة المتنوعة . تكلما فى كل شئ وعن كل شئ . تناقشا فى كافة المواضيع والقضايا . معها كان يشعر براحة شديدة . يحب أن يحكى لها ويقص عليها أدق تفاصيل حياته ومشاعره . ذكريات طفولته فى القرية ؛ أمه وأبوه وإخوته ؛ كل شئ . كانت تستمع بإنصات ؛ تناقش باهتمام ، تتكلم ، تتفق ، تختلف . منطقة وحيدة كان عليها حظر ، لايتكلمان عنها وهى « هى » ، فما كانت تتكلم معه عن نفسها قط . كلما سألها عن شئ يخص حياتها ، يخصها بأى شكل من الأشكال من قريب أو من بعيد ، عن علاقاتها أو طفولتها ، كانت تراوغ . تبتسم متعللة بأنه ليس هناك ما يقال ، أو إنها نسيت فهى لاتذكر الأمس وإنما تحيا اليوم فقط .

مرت عليه الأيام طويلة ، لياليها مسهدة . شوقه يزداد وحنينه يتعاظم ، لكنه لم يحاول الاتصال بها . كان يشعر بعدم قدرته على مواجهتها . فى أعماقه تأكيد يثقل على قلبه بأنها غاضبة عليه . لكن ما أثقل عليه أضعاف ذلك هو عدم قدرته على مصالحتها وامتصاص غضبها . أمضى معظم وقته فى المرسم ، منكباً على عمله ؛ يخرج فيه

كل طاقته وكل مشاعره . يستعيدها من الخيال ويجسدها على الأوراق في حالاتها المختلفة ؛ فينوس الحالمة ؛ فينوس الغامضة ؛ فينوس طفلة ؟ مقررا أن معرضه الجديد هو معرض فينوس الشرق .

* * *

كانت طوال هذه الأسابيع لاترى أحدا ، فلم يكن سعيد هو الشخص الوحيد الذى لاتتصل به . لم تكن تذهب إلى أى مكان آخر سوى عملها . لم تنتظم فى عملها مثلما انتظمت فيه تلك الأيام . فى الصباح تذهب إلى العمل . تقوم بكل التزاماتها بنشاط . تعود إلى البيت فلا تبرحه إلا إلى العمل فى اليوم التالى أو إلى موعد مع عادل . استعذبت وحدتها بين جدران البيت العتيق الذى أمضت فيه طفولتها وشبابها ؛ وهاهى تخطو خطوة أخرى مبتعدة عن ذلك الشباب . تمضى الوقت بين كتبها تقرأ كما لم تقرأ من قبل ، تتجول بين قطع الأثاث مستعيدة كل أحداث الماضى « كان أبى يجلس هنا ؛ كان يقرأ الجرائد على هذا المقعد ، أبى كان يحب الشاى كثيرا ، كنت ألعب وأخى مع أبناء الجيران ، أمى دائما ما كانت تجلس فى هذا الركن تشتغل التريكو لتصنع لنا ملابس للشتاء » .

حاولت استعادة بعض الأكلات التى كانت أمها تصنعها محاولة صنعها ، لكنها لم تكن تتذوق الطعم الذى لأكلات أمها ؛ فتقنع نفسها بأنها نسيت شيئا أو خطوة من خطوات العمل . كانت فى بعض الأحيان

تمسك قلما وتخط على الورق وجوها لأناس لاتعرفهم ، هذا له لحية وذلك له شارب وتلك بضفيرة وهذه عجوز . كانت ترسم بحرا وشراعا يرفرف في الهواء وأشجار تتراقص مع النسيم . في معظم الأحيان كانت تستحضر عادل . تتكلم معه . تقول له أشياء لا تستطيع أن تقولها له . ـهى لا تستطيع أن تتكلم معه . أبدا لا تتكلم ، فمعه دائما تشعر خوف وغموض . تشعر أنها مسلوبة الإرادة وأنها واقعة تحت تأثير ـحر لا قدرة لها على الفكاك منه ، وإن كانت تستعذبه ، معه تجوب ـاقا رحبة وترى بحورا لا متناهية وأمواجا صاخبة . نوارس محلقة ، ـبط لتلثم الماء وتعود لتتأرجح على جناح الهواء . شمس وقمر ونجوم ـ وقت واحد تغمر الكون بأضواء مبهرة فيجتاح النور قلبها ويتفتح . ـرد الجناحين ويطير في الفضاء ملوحا لكل البشر كونوا سعداء .

دائما ما تختتم يومها بمكالمة تليفونية مع محمود ، فهى لا تستطيع ـن تنام إلا إذا اتصلت به وأطمأنت عليه . تحكى له فى كلمات موجزة ـا فعلته طوال اليوم ، لكنها أبدا لم تذكر له لقاءاتها مع عادل . فى ـل يوم تنوى أن تخبره عن عادل ، لكنها تحجم فى آخر لحظة فتمضى لكالمة مثل مثيلاتها كل ليلة ، كيف حالك ؟ .. ما الأخبار ؟ ..أنا خير .. قرأت كذا اليوم .. وفى بعض الأحيان تسأل عن سعيد فى ـؤال عابر .

محمود أبدا لا يضغط عليها . اعتاد أن يتركها كما تشاء ، حتى

وإن بعدت فهى دائما ماتعود . يكفيه أن يطمئن عليها محاولا من خلال نبرات صوتها أن يستشف حالتها النفسية . أن يستشعر ما تمر به من تقلبات وتغيرات مخفيا قلقه وخوفه عليها ، محاولا إعطاءها القوة والثقة بأن هناك دائما من يقف إلى جانبها وقتما تحتاج إلى ذلك .

* * *

دعكت عينيها بأطراف أصابعها . نظرت فى الساعة . يغالبها الإرهاق والنعاس . ألقت الكتاب جانبا . تمطت وهى تتثاءب . أمسكت التليفون وأدارت القرص كى تنهى يومها بمكالمة محمود ، أدهشها سماع صوت سعيد ، حيته بشكل سريع ، ثم سألته عن محمود فأخبرها أن محمود لن يستطيع محادثتها لأنه متعب . كلماته صاعقة إنقضت عليها أصمت أذنيها . لم تعد تسمع شيئا . وضعت السماعة فى ذهول والخوف يملأها ، ظلت للحظات عاجزة عن التفكير ، لاتعرف ماذا تفعل ، « لا .. لا يامحمود ، لا تتركنى ، هل أنت غاضب منى ؟ ألم أعد طفلتك المدللة ؟ لا تتركنى . أنا أحتاجك ، أنت تعرف هذا » فجأة أخذت قرارها ، وبعد خمس دقائق كانت تقف فى الشارع تبحث عن سيارة أجرة . دقاتها العنيفة على الباب أفزعت سعيد وأيقظت محمود ، وقف سعيد حائرا أمام وجهها الشاحب وشعرها المبعثر ويديها المرتجفتين . أزاحت سعيد عن طريقها مندفعة إلى حجرة النوم . محمود على السرير أدهشه حضورها . لم يعلم بأمر المكالمة التليفونية

آثر سعيد ألا يوقظه ليرتاح بعض الشئ . جثت على ركبتيها إلى جانب السرير . داعبت خصلاته الفضية . قبلت يده . رغم سعادته برؤيتها أحزنه فزعها . قال بصوت واهن :

- لاتفزعى ، أنا بخير « عمر الشقى بقى » .

- أرجوك ، لاتتكلم .

- أنا أسعد إنسان فى الدنيا بعد أن رأيت لهفتك على .

ابتسمت تغالب دمعها .

- مادمت تقول كلام الصبية هذا فأنت بخير ولكنك تختبر حبنا لك .

وقف سعيد يتابعهما . قلقه على محمود أذاب كل شعور بالغيرة لديه . اقترب . جلس على حافة السرير مبتسما . وجه محمود الباهت تضيئه بسمة واهنة ، التفتت إلى سعيد :

- ألم يزره طبيب ؟

رد سعيد مدافعا عن نفسه .

- يرفض أى طبيب .

- مامعنى يرفض ؟ وهل هذا من حقه ؟ كيف تسمح له بذلك ؟ كيف توافق عليه ؟ نهضت ، أمسك محمود يدها قبل أن تنصرف قال بصوت ضعيف :

- أنا بخير لاداعى للطبيب .

جذبت يدها برقة . وضعت سبابتها على شفتيها المزمومتين . قالت بحسم :

- هذا ليس شأنك ، فقط حاول أن تستريح .

خرجت مسرعة إلى التليفون . بسرعة طلبت عادل . أول مرة تطلبه فى بيته . أقلقه صوتها ، قال بلهفة .

- ماذا هل أصابك مكروه .

- لا ، أنا بخير ، لى صديق يمر بأزمة ، أرجو أن تسعفنى .

أملته العنوان .

- سأكون عندك فى الحال .

وضعت السماعة . جلست . أسندت مرفقيها على ركبتيها . وضعت رأسها فى كفيها . كانت تنتفض . الآن لا تستطيع السيطرة على دموعها التى انهمرت . تركت لها الحرية تنسال على وجنتيها ، وتبلل رقبتها فتلتصق بها بضع شعرات . وقف سعيد أمامها ، لم تشعر به إلا عندما ربت على رأسها ، قالت بصوت مرتعش .

- سعيد أنا خائفة .

جلس إلى جوارها . شبك كفيه خلف رأسه مستندا بظهره إلى الخلف . قال بهدوء :

- لاتخافى ، أزمة بسيطة ، إن شاء الله تمر بسلام ، سيكون كل شئ على ما يرام .

انتبها لدقات خافتة على الباب . أسرعت إليه . سعيد من خلفها . آثار الدموع مازالت فى عينيها ، عادل وسعيد وقفا متواجهين ينظر كل منهما إلى الآخر ، لايتكلم ولايتحرك . قالت بصوت خافت سريع :

- الأستاذسعيد رسام ، الدكتور عادل عامر ، تقابلتما من قبل ، تفضل يادكتور من هنا .

قادته إلى حجرة النوم . كان محمود أكثر شحوبا وقد ازداد توترا وقلقا ، قالت بتودد :

- لاتكن طفلا مشاكسا واسمع كلام الطبيب .

اتجهت إلى عادل .

- طبعا تعرف الأستاذ محمود ، لا يوجد فى مصر من لايعرفه .

خرجت من الحجرة . دعت سعيد ليقف مع الطبيب . جلست فى الخارج تضغط بأناملها على جبهتها مغمضة العينين « هذه هى النتيجة ، شغلنى عنه عادل ، لن أهمله بعد اليوم ، يارب ، إحفظه لى وأعاهدك أن أحافظ عليه » .

قامت على أطراف أصابعها . وقفت إلى جانب باب الحجرة محاولة التسمع أو تخمين مايدور بالداخل . تذكرت يوم وفاة والدها ، كانت تقف تلك الوقفة على باب حجرة نومه ، أخوها مع الطبيب بالداخل ، جاء صوت الطبيب بغيضا متحشرجا .

- شد حيلك .

لم تسمع شيئا آخر ولم تشعر بشئ ، مادت بها الأرض فتهاوت . ارتطم رأسها بشئ صلب . كانت تغوص فى يم لزج ساخن . أفاقت فى حجرتها والسواد يلف كل شئ في البيت . رائحة الموت تملأ المكان وطعمه مر فى حلقها . الآن تستعيد ذلك الطعم البغيض مرة أخرى . تحس مرارته فى فمها . ارتجف جسدها . جرت هاربة إلى الصالة . ألقت بنفسها على الأريكة منتحبة .

خرج عادل ووراءه سعيد . اندفعت إليهما تمسح دموعها بظهر كفها . أمسكت يد عادل راجية .

- عادل ، لا تخفى شيئا أرجوك ، كيف حاله ؟

- أزمة بسيطة ، أعطيته حقنة الآن ، سينام حتى الصباح ، إذا أخذ الدواء بانتظام فستمر بسلام .

- إذن ليس هناك خطورة .

- الدواء بانتظام ، لاقهوة لا شاى ، لا سجائر ، لاسهر ، لا يبرح

الفراش لمدة أسبوع .

- سيكون بخير أليس كذلك ؟

- إن شاء الله .

- لا أعرف كيف أشكرك .

- الشكر فيما بعد ، عندما يقوم الأستاذ محمود بالسلامة .

احتضنت يده بين كفيها . عيناها النديتان بالدمع متعلقتان بوجهه ، بسمة عرفان على وجهها .

- مع السلامة ياعادل .

- سأمر عليه غدا قبل موعد العيادة ، هل أوصلك إلى المنزل ؟

- شكرا ، سأظل معه لن أتركه .

كان سعيد يرصد حركاتهما وكلماتهما ، يتفحصها ، يقلبها على أوجهها المختلفة ، « لا ألقاب بينهما ، عيناها تتعلقان به كإله ، يتكلم عن توصليها إلى البيت كما لو كانت عادة لديهما ، يتقابلان كثيرا إذا ، أفسحت له الطريق بابتعادى ، أتحت له الفرصة ليسرقها ، يجب أن أستعيدها ، هل تسيت يافينوس ؟ لنا معاً رصيد كبير . فلنستعد ياحبيبتى أيامنا ، لتغفرى اندفاعى » .

قالت بصوت خافت .

- سعيد ، لماذا تقف هكذا ؟ لقد انصرف الطبيب ، يجب أن تذهب لتحضر الدواء .

* * *

أسبوع مر كالحلم . زال القلق تدريجيا بتحسن صحة محمود ، وكلما تقدمت صحته كلما أحست بالراحة واستسلمت لهذا الشعور بالجو الأسرى الذى لف المكان ، أب حنون يشمل أبناءه بالعطف والحنان ، وأبناء أبرار يرعونه ويقومون على خدمته . كانت لاتغفل عنه لحظة واحدة حتى أثناء الليل ، توهمه أنها نائمة حتى ينام فتقوم وتجلس إلى جانبه تتابع أنفاسه تتأمله ، تنتظر أية إشارة لتلبى حاجته . كان سعيدا بهذا الاهتمام ، يشعر بحبها وحب سعيد وإن كان لم يغفل عن تجنبها الانفراد بسعيد ، رغم محاولاته الواضحة . أدرك أن شيئا ما بينهما لا يعرفه . تغير ما فى علاقتهما . رصد علاقتها بالطبيب الذى اعتاد المكان وألف العلاقات . لم يغب عنه عدم ارتياح سعيد له ، اتقاد عينيه فى حضوره ، شرود نظرته فى غيابه . فراشة هى فى البيت . تتحرك فلا تشعر إلا بطيف السعادة يتدفق من حولك . بسمتها الدائمة تشع المرح فى أركان البيت . اهتمامها بكل كبيرة وصغيرة ، عنايتها ورعايتها لكل شى مهما كان تافها . تمنى لو دام مرضه حتى لاتفارقه ، « ما هى إلا أيام وتعود الأمور كما كانت ، تعودين لعملك وبيتك وحبك وأعود أنا إلى وحدتى ، أقتات على ذكرى لمساتك

الرقيقة وبسمتك العذبة » ، هزها صوتها الرقيق :

- ضبطتك ، أين كنت ؟

ضحك مقهقها .

- كنت هنا .

- كلا ، لم تكن ، ألا تعلم أن الشرود من بين الممنوعات .

- لا ، لا ، قد زادت الممنوعات لدرجة أننى لن أمتثل بعد ذلك ، أما عادل فسوف أقاضيه لما منحك من سلطات .

ابتسمت لسماع اسمه ، رنينه له صدى محبب إلى قلبها . صمت يتأملها . همس بحنان أب :

- أتحبينه ؟

اشتعلت وجنتاها . ترددت لحظة . كادت تقول شيئا لكنها أحجمت . أغمضت عينيها لحظة . فتحتهما وهى تبتسم ابتسامة معاتبة .

- ألا تكف عن المزاح ؟

- أنا لا أمزح ، أريد أن أطمئن عليك .

- نطمئن عليك أولا ، وبعدها لنا جلسة طويلة معا ، نتحدث فيها عن كل شئ .

دخـل عليـهـمـا سـعـيـد ممسكا بصـينيـة عليـهـا ثلاثة أكـواب من الليمون . قالت ضاحكة :

- جئت في وقتك .

ضحك يشاكسها .

- جاهز دائما ، لكن حظي قليل .

رمقته وهي تتناول الكوب . التقت العيون في نظرة طويلة . عيناه تفيضان بالحب . عيناها تفيضان بالغموض .

* * *

عادت إلى العمل بعد انقطاع دام عشرة أيام وبعد أن أطمأنت على محمود وإنه يمكن تركه في البيت بمفرده . كانت تمر عليه بعد خروجها من العمل ، تمضي معه بعض الوقت قبل أن ترجع إلى بيتها . وكما عادت إلى العمل عادت إلى نظام حياتها قبل مرض محمود . لم يتغير شئ سوى مرورها عليه بعد العمل . شئ آخر قد تغير وهو سفر عادل لمؤتمر في الخارج . تجلس ساعات طويلة أمام التليفون تستحث جرسه . رنينه يبعث فيها الحياة ، فقد كان يعقبه صوت عادل . يملأها بالراحة ويمنحها القدرة على عمل أي شئ بعد ذلك . انقطعت عن لقائه أثناء مرض محمود ، فلم تكن تغادر البيت أبدا . كانت ملازمة لمحمود طوال الوقت لذا فلم يكن يراها إلا عند زيارته لمحمود كل

يوم قبل موعد العيادة ولمدة ربع ساعة على الأكثر . كانت مشغولة عنه بشكل كامل . اهتمامها بمحمود يستحوذ عليها تماما . كان هذا يضايقه كثيرا بل ويشعره بالغيرة . لكنه أبدا لم يفصح عن أى من هذه المشاعر . هو أبدا لا يفصح عن مشاعره ، لايتكلم عنها حتى مع نفسه . لم يعتد أن يفعل ذلك . بل لم يعتد أن يترك الفرصة لنفسه بأن يشعر بأى شخص وبأى شئ . يعيش بشكل آلى . حياته موزعه بين الكلية والمستشفى والعيادة . مؤتمرات دائمة وأبحاث . يغرق فى خضم من المراجع والمجلدات . لايعرف من الدنيا غير تلك المضخة العضلية التى أفنى حياته فى الغوص فى أسرارها . لا يهتم بشئ فى الكون إلاها ، حتى زواجه كان بنفس الشكل الآلى . مجرد إجراء روتينى لاستكمال مظهر من مظاهر الحياة دفعه إليه إلحاح أمه المتكرر . أقدم عليه ليحقق لها أمنية ، أو ليتخلص من هذا الإلحاح ويوفر لنفسه من يقوم عنه بمشاغل الحياة اليومية ، ليتفرغ هو لاهتمامه الوحيد ويحقق نجاحه ونبوغه . هى اختارت العروس فقال لافرق . قامت بتجهيز منزل الزوجية واختيار قطع الأثاث فقال مادام أعجبك فهو جميل . أدت كل الواجبات والطقوس وما كان عليه فى النهاية إلا أن يحضر العرس الذى أقامته أمه وأهل العروس . حتى ليلة الأوبرا تلك كانت نشازا فى حياته . لم يفعلها من قبل وإنما ذهب ليلتها تحت ضغط إحساس بالإرهاق الشديد وإلحاح أحد الزملاء عليه أن يستريح قليلا ويرفه عن نفسه . فكانت بالنسبة له مشكلة عويصة جدا ، حار فى أمرها ،

ولم يعرف حلّها ، فأسلم قياده لذلك الزميل ليدخل معه الأوبرا لأول مرة فى حياته .

جلس يتأمل المكان يتفحصه ويتعرف عليه . يراقب الوجوه الكثيرة حوله . ولأول مرة يرى البشر بعين إنسان لا بعين طبيب . البشر لديه مجرد آلات أصابها العطب فى جزء من أجزائها تخصص فيه وعليه إصلاحه . الآن هم كائنات حية ، لكل منها شخصية وملامح خاصة . يتكلمون ويضحكون . يتهامسون . تتعانق الأكف وتتعانق العيون . ترتفع الحرارة ليس لمرض ولكنها حرارة الحركة المفعمة بالحياة والمشاعر المتدفقة .

لفتت انتباهه بمجرد دخولها . فستانها بلون السماء وشعرها أسود منسدل بإهمال . الشحوب الخفيف على وجهها أضاف لمسة جمال إليه . جعلها تبدو ككائن طيفى لا وجود له فى الواقع . أحس أنها الأنثى الوحيدة التى رآها فى حياته ، مرت أمامه بقد مياس . حف طرف ثوبها بيده فارتفعت حرارتها وسرت فى جسده رعشة لم يذق طعمها من قبل . تعلقت عيناه بها ، جلست على مقعد قريب معها ذلك الشاب الذى يحيطها برعايته . أطفئت الأنوار وبدأ العرض . لم يقدر على متابعته . ظل ساهما شاردا متفكرا طوال الوقت فى هذا العالم الغريب الجديد عليه . يتأمل محاولا الفهم . فى الاستراحة عندما أضيئت الأنوار ، قام البعض لتناول مشروب أو تدخين سيجارة . جرت عيناه تبحثان عنها .

استأذن من زميله وقام إلى الردهة الخارجية . عيناه تسبقانه تفتشان . لمحها تميل على صاحبها متكئة على ذراعه . سقطت فهرع إليها يردد بلا وعى أنا طبيب ، أنا طبيب . أمسك يدها منحنيا عليها ، « شئ غريب ومختلف ، يد حية ، نبض رغم ضعفه له شخصية خاصة ، من أنت ؟ لا تذهبى ، لا لن أفقدك بعد أن وجدتك ، أنت لى ، لى وحدى . » فتحت عينيها أربكته نظرتها ، أحس خوفها ، لكن شعورا بأنهما نصفا كائن التقيا ملأه ثقة بأنها له وأن كلا منهما سيتبع الآخر مدى الحياة .

* * *

صبت الشاى . أمسكت الملعقة تقبله . تابعت الدوامة فى منتصف الكوب . رأسها يلف فى الدوامة . يثقل وينجذب إلى القاع . ألقت الملعقة وحملت الكوب متجهة إلى حجرة نومها . وضعت الكوب لتبدل ثيابها . نظرت إلى الساعة . مازال الوقت مبكرا ، لكن توترها جعلها تسعى للهروب من البيت . قررت الذهاب إلى محراب الإله حابى حتى يحين موعد العمل . هناك سوف تفرغ همومها وتستقبل الشمس فى رحاب الإله . هو صباح متوتر ككل صباح مر عليها بعد سفر عادل . ها هو عادل يعود ، عاد منذ ثلاثة أيام لكنها لم تستطع مقابلته . بعد غيبة خمسة عشر يوما ، ثلاثة أيام لا تستطيع مقابلته ، « مشغول ! دائما مشغول ! الآن هو بين زوجته وأولاده ، ليس لى مكان فى حياته ،

لكنـــى أحبـــه ، وهـــو يحبنى ، هـــو يقول ذلك ، هـل حقـا يحبنى ؟ يقــول أحتاجك ، يقول أعدت إلى الحيــاة ، أيــن أنـــا مــن حيـــاته ؟ أين مــوقــعى ؟ مـاذا أريد منه ؟ أريد الحب ، الدفء ، إريده لى ، لى وحدى . جئــت متأخرة ، ملكـته إنسانة أخرى ، أيحبها ؟ كيف يحبنى إذن ؟ له زوجــة وأولاد وعـمـل يقـضى فـيــه وقـتــه كله ، لم يبق لى إلا القليـل ، لا لم يبق لى شئ . هــا هو هنـا منـذ ثلاثة أيام ، يقـتـلنى الشـــوق إليـه ولا أحظى منـــه إلا باعـتـذار فـى التليـفــون ، وبعـــد ؟ ماذا بعد ذلك ؟ »

فى زحــمـــة الميـدان ازداد توترها . عــادم الســيــارات ، صــوت الكلاكسات ، مشاحنات الناس ، كل شئ يضغط على أعصابها . تشق طريقها بصعوبة فى الزحام . تسرع وتسرع . تتلاحق أنفاسها . صدرها يعلو ويهبط بعنف . خطواتها تزداد إتساعا . تجرى . تقترب لاهثة . أخيرا ها هى شجرتها الحبيبة . تقف مندهشة تلتقط أنفاسها . تحملق فى سعيد الجالس فى حضن الشجرة . وجهه هادئ وعيناه مغمضتان . هتفت متقطعة الأنفاس :

- سعيد ؟!

فتح عينيه . قادم هو من حلم بعيد ، ظل صامتا ساكنا يتأملها . جلست بهدوء ، يشملها راحة وإطمئنان ، وضـعت يدهـا على يده . أسندت رأسها للخلف وأغمضت عينيها . تدثر كل منهما بصمته سابحا

مع أفكاره . لم يشعرا بالوقت يمر . يده ترتاح تحت يدها . دفء يتسرب إلى قلبه ، يخطفه ، يسلبه قوته . سحب يده برفق ، أفاقت من حلمها ، قالت هامسة :

- أتأتى كثيرا إلى هنا ؟

أتى كل يوم تقريبا ؟

- لم آت منذ فترة .

- أعرف فأنت مشغولة .

عادا لصمتهما من جديد . « نعم أنا مشغولة ، لست أدرى ما الذى يشغلنى ، لكنى لا أفيق ، حياتى تنساب من بين أصابعى بلا جدوى ، مشغولة عن كل شئ حتى عن نفسى » .

« مشغولة أنت بحياتك الجديدة ، حياتك التى أخترتها ، هل أنت سعيدة ؟ لا أظن ، مسحة حزن تكحل عينيك ، كم أتمنى لك السعادة ، بأى شكل وبأى طريقة ، ولكن كونى سعيدة ، المهم أن تكونى أنت أشتاق إلى بسمتك الصافية وعينيك اللامعتين وقلبك المحب للحياة » .

قطعت الصمت بنظرة إلى الساعة .

- سعيد ، يبدو أن الوقت مر دون أن نشعر ، أنا مضطرة أن

أتركك ، موعد العمل .

- نعم إنا أيضا مرتبط بعمل ، هيا بنا .

سكت لحظة ثم ابتسم وقال :

- شئ غريب ، كنت أنوى أن أمر عليك فى العمل اليوم .

- صحيح ؟ لم تفعلها من مدة .

- كنت مشغولا ؟

- وماذا حدث ؟

- أردت أن أعطيك دعوة لمعرضى الجديد .

لمعت عيناها بالفرح ، سعيدة له ، أمسكت يده ، ضغطت عليها ، لم تسعفها الكلمات . بحثت عن شئ تقوله . رفعت كتفيها مبتسمة .

- ألف مبروك .

بحث فى حقيبته . أخرج بطاقتين ، قدمهما إليها . قال بهدوء :

- واحدة لك والأخرى للدكتور عادل .

ركزت عينيها المتسائلتين فى عينيه ، لم يعطها فرصة الرد ، سارع بإكمال حديثه :

- ليس لدى فرصة للمرور عليه . الوقت ضيق ، الافتتاح بعد غد

وأنا مشغول جدا ، أعتقد أن بإمكانك أن تقدمى لى هذه الخدمة .

كان يتفادى عينيها ناظرا إلى الأرض مرة ومتابعا الأتوبيسات مرة أخرى .

- سألحق بهذا الأتوبيس ، شكرا لهذه المصادفة ، شكرا لك .

أكمل كلامه وهو يجرى مبتعدا ملوحا بيده . قفز على سلم الأتوبيس . دس جسده فى الزحام وانغمس فى كتلة البشر ، تابعته ثم تابعت الأتوبيس المنطلق . أمعنت النظر فى البطاقتين - فينوس الشرق - وضعتهما فى حقيبتها . ربتت على الحقيبة بعد إغلاقها . مشت على مهل فى طريق العمل .

* * *

هذا أول خلاف يدب بينهما وبين عادل . لاتعرف ما الذي أثار الشجار ولاكيف بدأ . مشتاقة إليه ، تعد الدقائق الباقية على موعده . عناق محموم جمعهما . عيناها المدلهتان تتحسسان وجهه . تحتضن يديه بين كفيها . كل الكلمات لاتصف مشاعرها . أراح رأسه على صدرها . متعب هو . فى قلبه أشياء لايعرف كيف يعبر عنها . وحوش تتصارع فى صدره . تنهش . لأول مرة يشعر بالضعف . يشعر أنه لايستطيع السيطرة على الموقف ، هو الذى يسيطر على فريق كامل من الأطباء والممرضات والطلبة . هو دائما الحاكم بأمره فى مملكته . أمره

مطاع لا نقاش فيه . لا يقف أمام إرادته شئ . الآن يشعر بالضعف . يحتاج إليها بجانبه . بسمة هى ، غابت عن حياته كلها فوجدها مصادفة . إحساس بالحياة يدب فى الآلة التى كانها . الشعور بالاحتياج ضعف بالنسبة له . الشعور بالغيرة أيضا ضعف . هو لايقبل أن يكون ضعيفا . لايقبل الاحتياج إلى أى آخر . لا يقبل أن يتعذب بنار الغيرة ، هو المتميز دوما . هى السبب فى هذا الشعور البغيض إلى قلبه . لكنه يحبها ، ود لو تخلص من عذابه . طوقته بحنان وشغف . ودت معاتبته على طول البعاد . أصابعها تتخلل خصلات شعره . تعبث بها .

- أضعت كثيرا من عمرنا بغيابك الطويل .

- بل أنت من تضيع عمرنا .

وكأنه ينتظر أى همسة ليفجر ما بداخله . انطلقت الحروف من فمه سريعة ملتهبة . ضغط شفتيه متداركا اندفاعه . فاجأتها كلماته . أدهشتها . أبعدت رأسه قليلا لترى عينيه . سؤال حائر على شفتيها المنفرجتين .

- عادل ، ماذا تعنى ؟

تركها وقام . اتجه إلى النافذة . رأى وجهه فى الزجاج . استدار . واجهته عيناها المتطلعتان . تقدم منها ، أمسك كتفيها وهزها بعنف .

- أنا لا أقبل أن أتقاسمك مع آخرين .

- أنا لا أفهم .

- بل تفهمين ، سعيد ومحمود ، خصوصا محمود .

اتسعت عيناها ، لاتصدق ماتسمع ، لاتصدق مايحدث . وهكذا بدأ الشجار . تبادلا كثيرا من الاتهامات . إحتد كل منهما على الآخر ، إجتاحتها رغبة شديدة فى البكاء سيطرت عليها بمجهود شاق . جسدها ينتفض ، برودة تسرى فى إطرافها . قلبها يتجمد . ساقاها تخذلانها فلاتقدر على الوقوف . اخفت وجهها بين كفيها . فى ظلام كفيها رأت عالما جديدا غريبا عليها . بحر غاضب أمواجه متلاطمة . مركب صغير تتقاذفه الأمواج ، تعصف به . صخور تبرز من المياه الثائرة ، تتعاظم ، تصير أشباحا عملاقة . دوامات تأخذ رأسها وتدور وتدور . تنسحب إلى الخلف . تضع رأسها على ظهر المقعد . يجثو على ركبتيه أمامها . يعتذر . يستسمحها . يطلب الصفح والمغفرة لاندفاعه . هو يكره شعوره بالغيرة ، ينقم عليها لأنها السبب فى أن يشعر بهذا الإحساس ولأول مرة فى حياته ، لكنه لايريد أن أغضابها ، لايريد فقدها ، فقط يريدها له وحده . لاتهتم بسواه . لا ترى غيرة ، يريد أن يجدها فى أى وقت يحتاجها فيه . لاتنشغل عنه بأى إنسان ولا أى شئ .

جاهدة لملمت حنايا نفسها المبعثرة . تماسكت . استعادت قوتها . بأطراف أصابعها الباردة مسحت على شعره . قالت هامسة :

- سأذهب الآن .

- لن أدعك تذهبين ، أرجوك لا تتركينى .

- لن أتركك ، لكننى يجب أن أذهب الآن . أنا متعبة ، لا أستطيع البقاء .

قبل أن تخرج أخرجت بطاقة دعوة سعيد ، وضعتها على طرف المقعد . لم تقل شيئا ولم يسألها .

* * *

أسندت رأسها إلى الباب وهى تدير المفتاح . الظلام يسود البيت . تحسست طريقها دون أن تضئ النور . على السرير تهاوت منهكة الجسد والقلب . تنفست بقوة جاذبة كمية أكبر من الهواء إلى صدرها . سيطرت على الدموع ولم تسمح لها بالنزول من عينيها فاستشعرت ملوحتها فى حلقها . حدقت فى خطوط ضوء باهتة رسمت معالم الشيش على سقف الحجرة . اتسعت الخطوط وأطل من بينها وجه عادل ، « أنت إذن تتبعنى أينما ذهبت ، تسلب عينى النوم ، لماذا جئت الآن ؟ أما يكفيك ما كان ؟ أهكذا تفكر بى ؟ لا ياعادل ، لا ، لست بشئ حتى أتجزا ، بل أنا إنسانة لها قلب استيقظ على الحب ، أحبك أنت دون أن أعرف السبب ، هل حقاً أحبك ؟ هل هذا هو الحب ؟ أين أنت يا أبى ؟ أتوق إلى حضنك فأغرق فى حنانك ، أدخل إلى قلبك وأختفى معك إلى الأبد ، لماذا تركتنى يا أبى ؟ لا أعرف ما أفعل ، لو كنت معى الآن لما احتجت

إلى أى منهم ، أنت وحدك تكفينى فى هذا العالم » .

دق جرس التليفون . تركته حتى انقطع الرنين . قامت متثاقلة . أضاءت نور الحجرة . واجهت نفسها فى المرآة . صورتها تنظر إليها نظرة حادة متحدية . تحاول النفاذ إلى داخلها . « من أنت ؟ من أنا ؟ لماذا تنظرين إلى هكذا ؟ لو تعرفين الصح من الخطأ فلتخبرينى ، مدى يدك إلى ، ساعدينى » ، لمست يدها الممدودة فى المرآة ، تحسستها . اقشعرت للملمس البارد . دق جرس التليفون بإلحاح . رفعت السماعة بلا مبالاة .

- آلو .

- مساء الخير .

- مساء الخير يامحمود .

- كيف حالك .

- بخير .

- بل هناك ما يحزنك ، هل حدث شئ ؟

- أنا بخير ، كيف حالك أنت ؟

- لا تخدعينى وتقولى بخير ، قولى لا أريد أن أخوض فى هذا الحديث وحسب .

- ليس هناك ما أخوض فيه وما لا أخوض ، فقط أشعر ببعض الضيق ، هذا كل ما فى الأمر ، لاتشغل بالك دعنا من ذلك ، هل قابلت سعيد ؟

- لك ماتشائين ، أما سعيد فكان عندنى بالأمس ، أخذ لوحته ليضعها فى المعرض .

- حقا ؟ فينوس الشرق ؟

- نعم .

- ياله من مجنون سعيد هذا ، أيسترد هديته ؟

- الهدية ستعود بعد المعرض ، أما الجنون ، فهو مجنون بك .

- محمود ! كف عن هذا ، هذا هو الحديث الذى لا أحب الخوض فيه .

- كما تشائين ، دائما كما تشائين .

- سأمر عليك فى الغد لنذهب معا .

- اتفقنا ، تصبحين على خير .

- تصبح على خير .

عادت إلى سريرها . أطفأت النور . أغمضت عينيها . خدر النوم يتسرب إلى بدنها بحرا فيروزيا صافية مياهه . تطل من بين الأمواج

وجوه كثيرة . وجوه تعرفها وأخرى لاتعرفها ، من بينها وجه سعيد ، وهذا وجه عادل ، وهذا محمود . يبرز وجه أبيها متألقا بهالة من نور ، يكبر ، يتعاظم ، فيضيئ الكون ويمحو بضيائه كل الوجوه .

* * *

ظل واقفا مكانه لايتحرك كتمثال مثبت فى هذا الموضع من سنين . أحس بالوحدة بعد أن تركته ورحلت . يرشق بنظراته الباب الذى أخفاها خلفه . تحولت كراهيته إلى هذا الباب الذى حرمه منها . تحرك ببطء فى فراغ الغرفة . خطوات فى كل إتجاه . ينظر تارة إلى البساط وتارة إلى السقف . يدور ويدور لايقدر على الجلوس كأن كل المقاعد مزروعة بالشوك . اتجه إلى النافذة المغلقة . من الزجاج أطل على نفسه . أدار ظهره لصورته غير الواضحة المعالم . « تركتنى ومضت ، هل تعود ؟ لا لن تعود ، بل ستعود ، كل منا خلق للآخر ، أغضبتها ، بل جرحتها ، قد لاتعود ، لا لن أحتمل ، أصبحت جزءا من حياتى . »

وقعت عيناه على بطاقة الدعوة . تقدم ببطء . التقطها . جرت عيناه على الحروف مسرعتين . استقرتا على اللوحة المطبوعة . نار إندلعت بداخله فأحمر وجهه اتقدت عيناه ، « تتحدانى إذن ، تتعمد أن تثير غيرتى ، تثيرنى وتغضب حينما أثور ، أطلب منها أن تكون لى وحدى فتعطينى دعوة لمعرض هذا السعيد ، تلقاه إذن ، بل تؤكد لى أنها لا غنى لها عنه . »

مزق البطاقة بعنف . حولها إلى مزق صغيرة ألقاها فتناثرت على الأرض . داسها بقدمه . استدار إلى الجانب الآخر . من داخل البرواز كانت زوجته تحدق فيه وتلم طفليها بين ذراعيها ، « لماذا تنظرين إلى هكذا ؟ غاضبة أنت ؟ لا تروقك تصرفاتى ؟ ومتى كانت تروقك ؟ ما الذى يغضبك ؟ لم يتغير شئ بيننا ، هى لم تسلبك شيئا ، بل أعادتنى إلى الحياة ، لا لم تعدنى ، أنا لم أحيا قط قبل أن ألقاها ، لقد ولدت على يديها ، فأصبحت إنسانا كسائر البشر ، أشعر وأحس وتنتابنى المشاعر المختلفة ، أفرح وأغضب ، أحب وأغار ، أتعذب وأسعد ، بشر ، ماذا يهمك من أمرى ؟ هل تهتمين بى الآن وتتركين الاهتمام بالأثاث والديكور والموضة ؟ لم يجمعنا قط شئ واحد . حتى هولاء الأطفال ، هم أولادك أنت ، أما أنا فلم أكن موجودا حتى قابلتها فمنحتنى نسمة الحياة لأفتح عينى ، هاهى تتركنى وتمضى ، هل أنت سعيدة بذلك ؟ سأعود إلى الجمود من جديد ، لا ، هى لن تتخلى عني ، هى لى ، ليست لأحد سواى ، سعيد ومحمود مجرد صديقين من السهل أن تبتعد عنهما . »

جلس على مقعد . مد ساقيه إلى الإمام . شبك أصابع يديه خلف رأسه . رآها تسبح فى الفراغ . ترتدى ذلك الثوب السماوى الذى كانت ترتديه ليلة الأوبرا . تتناثر خصلات شعرها فى الهواء . موسيقى تتهادى من مكان خفى . جفناه يثقلان وتأخذه سنة من النوم .

* * *

دخلت تتأبط ذراع محمود . القاعة شديدة الاتساع . كثافة الإضاءة ترفع حرارة الهواء . المكان مزدحم بوجوه كثيرة تعرف بعضها . وقفا يبحثان بعيونهما عن سعيد . لمحهما فجأة مسرعا ، تهلل وجهها . اندفع سعيد إلى حضن محمود . هى تراقبهما فرحة . رغم بعض الشحوب عيناها لامعتان ووجهها باسم . قالت معاتبة :

- أليس لى نصيب فى الترحيب .

قال محمود مشاكسا :

- تغارين منى إذن .

أعطت يدها ليد سعيد الممدودة ، همس :

- بل لك كل الترحيب .

ضحك محمود وهو يربت على ظهريهما .

- فلأنصرف أنا ، فقد أخذت نصيبى من الترحاب والباقى لك أنت .

تركهما وانصرف . وقفا صامتين عيناه مثبتتان على وجهها . عيناها هاربتان فى الفراغ . « خفت ألا تأتى ، ها أنت أمامى ، لكنك لست معى ، عموما أسعدنى وجودك فى معرضك ، ألا تعرفين أنه لولاك ما كان هذا المعرض . »

« أنا سعيدة جدا بنجاحك ، أنت أهل لهذا النجاح ، أتمنى لك كل التوفيق والسعادة ، قلب طيب مثلك يستحق كل الخير » .

قطع صمتهما شاب قال أنه صحفى فى إحدى المجلات ويريد أن يتحدث مع سعيد عن بعض اللوحات . استأذنت منهما لتلقى نظرة على المعرض . خطفت لمحة سريعة إلى باب القاعة ، « هل يأتى ؟ لو فهمنى سيأتى ، أتمنى أن أراه يصافح محمود وسعيد ، ويعرف أنهما أهلى ، وأنى لا غنى لى عنهما » .

جالت متنقلة بين اللوحات منبهرة بجمال الخطوط والألوان ، إحكام التكوين ورقة التصميم ، الشاعرية المتدفقة من بين الخطوط . ملامحها تطل عليها من كل اللوحات . محمود واقف خلفها . لم تشعر به ، كل حواسها مشدودة لملامحها فى كل اللوحات وكأنها تنظر فى عدة مرايا تعكس لها صورا داخلية . قال بصوت خافت :

- ألا تلاحظين شيئا ؟

استدارت له . اصطدمت عيناها بعينيه الثاقبتين . ارتبكت . عيناها تبحثان عن مهرب . لاذتا بأقصى ركن فى القاعة . قال بنفس الصوت الخافت :

- هذا هو الحب ، الحب خلق ، إبداع .

- محمود أرجوك .

- الحب ليس استلابا .

- كف عن الضرب تحت الحزام .

- حاضر ، هيا نهنئ سعيد ، فبعد أن رأيت كل هذا الإبداع لابد أن أهنئه مرة أخرى .

- هل أنت غاضب منى ؟

- بل خائف عليك ، أراك تتخبطين ، أخشى عليك الإصابات .

عيناها معلقتان فى الفراغ ، صوتها يأتى من بعيد .

- نعم أعرف ، هيا نبحث عن سعيد.

وقف سعيد أمامها ، قال منحنيا بحركة مسرحية :

- هاهو سعيد أمامك ، لبيك إلهتى .

- لست إلهتك .

- إذن ملهمتى .

تورد خداها . إزدادت عيناها لمعانا . ضحكوا . احتجت بدلال ضاحكة و تبادلوا الآراء حول المعرض واللوحات . مر الوقت سريعا . رحل معظم الزوار وأصبحت القاعة شبه خالية إلا منهم ونفر قليل . قالت مترددة :

- الوقت تأخر ، لابد أن أنصرف .

قال سعيد :

- سأوصلك إلى المنزل ، هيا يامحمود نوصلها ثم نكمل سهرتنا بعد ذلك .

لم تعترض . تقدمتهما إلى الباب الخارجى . استوقف محمود أحد معارفه ليسلم عليه . لحق بها سعيد . همس يراقب عينيها :

- هل أطمع فى دعوة إلى الغداء غدا ؟

- ومن يدعوك ؟

- أنا أدعوك وأنت تدفعين الحساب .

ضحكت .

- اتفقنا ، مر على فى العمل غدا فى موعد الإنصراف .

* * *

تناولا غداءهما فى مرح . كانت تشتاق إليه . تهفو إلى رحلاتهما الصبيانية . تحن إلى جو البساطة والمرح الذى كان يلفهما معا فى جولاتهما . بدت السعادة فى عينيها وإن كانت لم تمنعها من الشرود فى بعض الأحيان والسقوط داخل نفسها بعض اللحظات . يلحظ سعيد هذا فيدق بقبضته على المائدة ليستعيدها . تعود باسمة بنظرة عتاب . بعد الغداء اقترح عليها أن يشربا الشاى فى الفيشاوى . رنت ضحكتها القديمة كضحكة طفلة .

- ألا تخشى مقابلة العجوز ؟

- قلت إنها عجوز خرفة فلم أتخوف إذن ؟

- أراك أصبحت شجاعا .

* * *

جلسا يحتسيان الشاى بالنعناع ، كل منهما يحدق فى كوبه . لا يشعر بوجود أحد حوله . رائحة البخور القادمة من بعيد تشيع جوا أسطوريا . يتحد المكان والزمان ويتراجعان للخلف مئات السنين . نداءات النادل وأصوات الأكواب والصوانى ، أحاديث الناس . تأتى كلها عبر التاريخ سحيق . أخرجت العود الأخضر من الكوب . ظل معلقا فى الهواء بين أصبعيها ، تتابع القطرات الذهبية المتساقطة من الطرف الآخر . ألقته بإهمال على الصينية . احتوت الكوب فى كفها ، رشفت رشفة صغيرة . أعادت الكوب إلى المنضدة . « لماذا أنت صامت ؟ هناك ما يدور فى رأسك ، تود أن تخبرنى بشئ ، ما هو ؟ تعاتبنى على ابتعادى ؟ على إنشغالى عنك ؟ تذكرنى بأيام كنا لانفترق فيها أبدا ؟ لست سعيدا الذى أعرفه ، أصبحت هادئا صموتا ، أو ، لست أدرى ، أشعر فقط أن هناك اختلافا ، قد يكون إلى الأحسن ، لكنى لم أعتده ، لاتظل صامتا هكذا ، الصمت يضايقنى ، يقتلنى ، تذكرنى الآن بمحمود ، هو أيضا يهوى الصمت » .

أطرق يتابع قطعة من الورق يتلاعب بها الهواء . تسرق نظرته قطة تتبختر أمامه . تقفز على الكرسى المقابل . تلتف حول نفسها وتسلم جسدها للنوم . يتأملها مبتسما .

« آه يافينوس ، أراك فى وداعة هذه القطة ، وفى شراستها أيضا ، كم أحبك ! بماذا تفكرين الآن ؟ هل تفكرين فيه ؟ بالأمس كنت تنتظرينه ، لم تبوحى ، عيناك القلقتان فضحتا انتظارك ، لكنه لم يأت ، أنت تطلبين المستحيل ، هو لا يفهم ، لايستطيع أن يفهم » .

نقرت على الصينية بأطراف أناملها . ضحك . أمسك كوب الشاى . رشف رشفة وتبعها بثانية ، وضع الكوب على الصينية ، ثبت عينيه على وجهها بتركيز شديد .

- فينوس ، هل تسمحين لى بأن أناديك فينوس ؟

- كما تحب لامانع عندى .

- سأسافر قريبا .

- تسافر ؟ إلى أين ؟ رحلة .

- إيطاليا ، دراسة وعمل .

أربكتها المفاجأة ، ضغطت على الكوب بيدها . ثبتت عينيها فى السائل الداكن . حركت الكوب حركة دائرية فصنعت دوامة فى منتصف

السائل ، رفعت عينيها إليه مبتسمة .

- أتسافرين معى ؟

- أسافر معك ؟!

- نعم ، نتزوج ونسافر معا ، يمكن تأجيل السفر إلى أن تتم الإجراءات .

- نتزوج ؟!

- وما الذى يثير الدهشة ؟

- المفاجأة ليس إلا .

- أنت تعرفين أننى أحبك .

- سعيد ، فى ال ...

- أرجوك ! لقد جئت اليوم كى أتكلم ، لا لأسمعك ، فقط لدى ما أقوله لك . فاصغى إلى وأنصتى ، وأعطى نفسك فرصة للتفكير ، بعدها فقط يمكنك أن تتكلمى .

- أنا مصغية .

- أراك تائهة لا تعرفين الطريق ، رغم أنه واضح ، هل تعرفين المشكلة الحقيقية ؟ المشكلة أنك تدورين حول نفسك لا تنظرين إلى

الأمام ، لا تنظرين حتى داخلك . أنا واثق أن بداخلك روحا عظيمة ، روح فنانة ، لكنها سجينة ، لاتجد الطريق إلى الخارج ، وأنت السجان لأنك لا ترينها ولاتشعرين بها ، أدخلى إلى داخل نفسك ، فتشى عنها ، عن أسرارها ، عن سر جمالها ، ستجدينها ، افتحى لها ، حرريها ، اجعليها تنطلق ، ترى العالم الرحب الفسيح بكل جماله وكل قبحه ، أعطى نفسك الفرصة كى تعرفى ما حولك ، لتعرفى ما تريدين ، العالم ملئ بالأشياء التى تستحق أن نهتم بها ، أن نحيا من أجلها ، أن تكون هدفا ينأى بنا عن التفاهة ، عن أن نحبس أنفسنا بين جدران ذواتنا ، أنت تملكين هذه القدرة لكنك تهدرينها ، أتمنى ألا يغضبك كلامى أو يحزنك ، فبحق الصداقة التى بيننا ، وبصرف النظر عن مشاعرى الخاصة تجاهك ، رأيت من واجبى أن أبوح لك بما أرى ، قد تكون هذه آخر مرة نلتقى فيها وقد تكون بداية جديدة لنا معا ، ليس هذا هو المهم ، المهم هو أنت ، أتمنى أن تجدى طريقك ، وأن تتحققى فيه ، وأنا واثق من نجاحك ، لأنى أعرفك كما لم تعرفى نفسك .

هى شديدة الإنصات ، تفتح قلبها وعقلها لكل كلمة تخرج من فمه ، تفكر وتفهم وتحس . تتمنى أن يطول الحديث . هذا الحديث الذى تسمعه لأول مرة ، وهو الذى يحدثها به ، هو الذى طالما اعتبرته طفلا ، مجرد طفل تلهو معه وكأنها تكبره بعشرين عاما وليس بعامين فقط .

« كبرت إذن ياسعيد ، صرت رجلا ، لم تعد ذلك الفتى المرح المنطلق

الذى يجوب معى شوارع القاهرة والمعارض ، أنا أيضا أحتاج إلى هذا » .

- فينوس ، هل أنت معى ؟

- نعم ، نعم معك ، وأوافقك .

لمست أصابعه ظهر يدها النائمة على المنضدة ، أحاطتها ، ضغطت برفق وحنان .

- والسفر ؟ هل أرجئه ؟

- سعيد ، اسمعنى أنت الآن ، هذا دورى فى الكلام ، قد لا أستطيع أن أفسر لك أو لى مشاعرى تجاهك من قبل ، لكن أستطيع الآن أن أعرف ما يدور داخلى ، لاتؤجل سفرك ، فقد ألحق بك ، وقد لا أفعل ، لكن ما أثق به أنه لاغنى لى عنك ولا عن صداقتك ، سافر ، وإن لم ألحق بك فلابد لك من العودة إلى بلدك والناس الذين أحبوك ، وأنا من بينهم ، يومها سنلتقى كما ألتقينا الآن ، سعيد الآن نبدأ معا من جديد علاقة جديدة قوية ، بصرف النظر عن ماهية شكل هذه العلاقة ، فستكون قادرة على تحدى الصعاب ، سنعرف معا كيف يمسك كل منا بيد الآخر ، ويقف إلى جانبه ، فالصداقة التى بيننا ، والتى تبدأ عهدا جديدا اليوم هى أجمل ما أملك .

عاد كل منهما إلى صمته بعدما فتح قلبه وأخرج ما فيه . الآن يشعر كل منهما أنه حر وأنه أكثر استقرارا وهدوءا . تشابك كفاهما

وهما فى الطريق ليختتما يومهما بزيارة محمود ، يجمعهما إحساس بأنهما يقفان على أرض مشتركة صلبة .

* * *

« هذا أنت يا إلهى المعبود . مرة أخرى أدخل محرابك . أقف بين يديك مبتهلة متضرعة أن تقبلنى فى رحابك . أن تسكنى فى صدرك . أعلم أنه لاتجب عبادتك فما من أحد يعبد إله الشر . لكنى أحببتك . دخلت محرابك مختارة . لا ، بل سعيت للولوج إلى دنياك . أضع قلبى فى لهيب نارك قربانا متوسلة أن تقبله . ضمنى أكثر إلى صدرك فقد أنصهر وتتشربنى خلاياك ، أو تذوب أنت فى خلاياى . نندمج فنصبح طائرا خرافيا بجناحين كبيرين ، نحلق بهما فى السماء ، إلى حيث لا إله ولا بشر ولا شئ ، ليس هناك سوانا ، ذلك الطائر الجميل يعلو ويرتفع لا قيود تحده » .

وقفت أمام الباب لحظة . قلبها يدق بعنف . أطرافها ترتعش . بعد لحظة تكون فى محراب الإله ست . تشتعل فى محرقة القربان وهو يلتهمها بعينيه الجائعتين دوما ، بشفتيه الشهوانيتين . تمارس طقوس عبادته منتشية . هو ينقلها إلى عالم غريب . عالم أضواءه مبهرة . لاتقدر على فتح عينيها . تمد يدها تتلمس الطريق . يقودها ممسكا بيدها فى دروب ودروب . ترى أشجارا ونخيلا ، عصافير حرة تنشد أناشيد الحب ، زهورا من نور تضئ ظلمات الليل الكثيفة . تقف مبهورة

الأنفاس . لكنه فجأة يعلن انتهاء الصلاة . عليها إذن أن تنسحب ببطء ، بظهرها ، خارجة من المحراب ، تاركة عينيها المتعلقتين به وقلبها رمادا فى المحرقة .

كورت قبضتها كـى تدق البـاب . تعلقت يدها فى الهواء . وقفت ساكنة ، فى كل مرة تعقد العزم على حسم الأمر . فى كل مرة تخرج من عنده معلنة أنها لن تعود . ها هى تعود . لا تجد بديلا عن ذلك . بل هذا ما تحبه وترغب فيه . تهرب منه وتعود إليه ، تخافه وتأمن فى صدره .

دقت ثلاث دقات ، كان هناك خلف البـاب يندم على تركـها . يتحرق شوقا لها . فتح متلهفا . خطفها إلى صدره لثم كل جزء استطاع أن يصل إليه . تملصت من بين ذراعيه ، ابتعدت . وقفت ساكنة تنظر إليه ، وينظر إليها . كل منهما يرتجف .

- وبعد ؟

- هذا ما أتيت لأعرفه .

- أحبك .

لأول مرة يتخلى عن حذره . لأول مرة يفصح عما يجيش به صدره . لأول مرة يطلق العنان للسانه ليعبر عنه . يقبلها دون كلمة . يطوقها بذراعيه صامتا مكبلا مشاعره ، خائفا من حبها . الآن فقد السيطرة على كل شئ ويعترف لنفسه قبلها ، لايمكنه الابتعاد ، هى قدره .

- حبيبتى ، لقد توحدنا فلا يمكننا الافتراق .

- وبعد ؟

- فلنرحل ، فلندع هذا العالم بحساباته وقوانينه .

- نهرب ؟

- بل نحيا حياتنا التى يحرموننا منها .

- هل تستطيع ؟

- بل لم أشعر بهذه القوة طوال حياتى ، معا نحطم كل القيود .

- وزوجتك ، وأولادك ؟

- هم جزء من هذه الحسابات والقوانين .

أحاطها بذراعه . تحسس شعرها . ضمها إلى صدره . أغمضت عينيها مستسلمة . شفتاه جمرتان تمرحان على عنقها . قلبها يركض فى جنان خضراء وسماء باسمة الشمس حانية . صوت البحر يأتى وشوشة ناعمة . ذراعاه تطوقان الكون بأسراره . يدلف إلى محرابها . فى خشوع يتبتل بالصلاة والأدعية ، يزرع ورودا وأزاهير فى بستانها . همست نشوانة :

- اليوم أنا لك وأنت لى ، وغدا دعنا منه ، قد يكون أجمل من اليوم ، وقد لا يأتى أبدا .

* * *

بحثت عن رقم مقعدها بين صف المقاعد المرصوصة أمام بعضها . وجدت المقعد المجاور لها خاليا فشعرت بالراحة . وضعت حقيبتها على الرف وجلست . ألقت نظرة إلى ساعتها . أراحت ظهرها إلى الخلف ناظرة عبر زجاج النافذة تراقب الوجوه على الرصيف . مودع ومسافر ، مستقبل وعائد من غربة ، حمال ينوء كاهله تحت أحمال الآخرين ، ظهر محنى وقد ممشوق . عالم ملئ بالمتناقضات ، « كل واحد من هؤلاء البشر له أحلامه ؛ له آماله ، قد تكون أحلاما بسيطة ، قد تكون طموحة ، وأحيانا مستحيلة ، منهم من يحقق أحلامه فيحلم بغيرها ، ومنهم من يفشل فيحلم أيضا بغيرها ، بدون الحلم لاتستمر الحياة ، المهم أن يكون للإنسان القدرة على الحلم ، صناعة الحلم هى صناعة الحياة » .

وقفت أمامها سيدة شابة بين ذراعيها طفل صغير ، قالت بصوت رقيق هادئ :

- مساء الخير ، أليس هذا المقعد رقم عشرة ؟

- نعم .

جلست جوارها . أجلست الطفل على رجليها وأسندت رأسه إلى صدرها محيطة ظهره بذراعها . تبادلا الابتسام ثم راحت كل منهما إلى عالمها .

نظرت إلى الساعة . أسندت رأسها إلى زجاج النافذة . رنين الجرس يحث القطار . صفارة طويلة . اهتزت فى مقعدها مع الحركة إلى الأمام . أغمضت عينيها .

، « عادل الآن فى العيادة ، ترى هل تسلم الرسالة ؟ هل فتحها ؟ قرأها ؟ هل سيغضب ؟ بماذا يفكر الآن ؟ هل يشعر أننى خذلته وتخليت عنه ؟ حتما سيغضبه سفرى المفاجئ تاركة له بضع كلمات على ورقة ، لكنى لم أستطع مواجهته ، لم أستطع إبلاغه بقرارى وجها لوجه ، كان يجب على أن أقابله ، أكلمه ، أبلغه بنفسى ، لكن لو كنت فعلت لضعفت أمامه كما يحدث فى كل مرة ، لا أستطيع أن أقاوم نظرته الراجية ، هذا أفضل . »

- طنطا أم الإسكندرية ؟

انتبهت على صوت جارتها .

- الإسكندرية .

- إذن سنبقى معا لآخر الرحلة ، السفر فى الليل يخيفنى وخاصة بمفردى .

ردت باسمة مشيرة إلى الطفل :

- معك رجل .

ابتسمت الأخرى ، نظرت إلى طفلها حانية ، سحابة حزن عبرت وجهها ، قالت بصوت عميق لكنه هادئ رقيق فيه رضا :

- ليس لى سواه .

« ليس لك سواه ، أما أنا فليس لى أحد ، خطابى إلى عادل ينهى كل شئ ، لا ، عـادل لم يكن لى ، لم يكن لى يومـا ، كل منا جـملة اعتراضية فى حياة الآخر ، سنمضى كل فى طريقه » .

* * *

بعد لقائها الأخير بعادل عزمت على ألا تعود . قررت السفر لبعض الوقت ، قد يكون هروبا ، وقد يكون فرصة تعطيها لنفسها لتقوى من عزمها . أخذت إجازة من العمل ، ثم كتبت رسالة إلى عادل . ذهبت إلى العيادة قبل موعد وصوله . تركت الرسالة مع التمرجى . انطلقت إلى المحطة لتستقل أول قطار .

جلست ساعات طويلة تحاول كتابة تلك الرسالة . لم يطاوعها القلم ولم تطاوعها الكلمات . لكنها بعد مجادلة ومشادة مع نفسها تغلبت وسيطرت على زمام القلم الذى أطاع :

« عادل ..

قبل أن أبدأ حديثى معك ، أرجو ألا تغضب منى وألا تظن بى الظنون ، هذا أول طلب أطلبه منك منذ تعارفنا ، وهو آخر طلب أطلبه منك ، فأنا لا أحتمل فكرة غضبك منى .

عادل ، لا أستطيع أن أنكر مشاعرى تجاهك . ولا أشك فى مشاعرك نحوى ، لكنى على يقين من أن هذه المشاعر جملة اعتراضية

فى حياة كل منا ، فلك حياتك ، أما أنا فما زلت أتحسس طريقى كى أصنع لنفسى حياة . أنت تريدنى جزءا من حياتك . وكم هو صغير ذلك الجزء ، أنا لا أستطيع أن أكون مكملا لحياة صنعت بالفعل ، صاحبها اكتشف بها نقصا حاول أن يستكمله بى ، ليس هذا ما أحلم به ، أنا أريد أن أصنع حياتى ، أصنعها بنفسى .

عادل ، لايمكننى أن أكون ماتريد وأنت لن تستطيع إعطائى ما أريد ، لذا فليظل كل منا ذكرى جميلة للآخر ، قد تكون عونا له على الاستمرار فى مشوار حياته . أتمنى أن تلتمس لى بعض العذر فى أسلوب إبلاغك بقرارى فلا أكتمك أن هذا ما كان بوسعى فعله ، أتمنى لك السعادة ودوام النجاح » .

طوت الورقة بعناية . قبلتها . وضعتها بحرص فى مظروف . أبقتها فى يدها لحظة . ألقتها على المكتب . عقدت كفيها خلف رأسها محملقة فى خط التقاء السقف بالحائط . ببطء سحبت الرسالة . أعادت قراءتها ، ثم أعادت قراءتها مرة أخرى . قامت وهى تطويها . وضعتها فى المظروف ودستها بسرعة فى حقيبة يدها . استدارت مبتعدة بسرعة . فى الصالة جلست على أول مقعد . قلبها ينتفض ، يصرخ . يضرب من الداخل بعنف . يتخبط بين الضلوع . عيناها زائغتان . دقات الساعة تزيدها توترا . القلب تعب من الاصطدام بالضلوع التى كبلته ، تهاوى . كف عن الصراخ . صار يئن . دمعتان ساختنان ألهبتا الوجنتين .

مسحتهما بأصابع باردة أحست لسع برودتها على وجهها . أمسكت سماعة التليفون . أدارت القرص :

- ألو ، محمود !

- أهلا . كيف حالك ؟

- أنا بخير ، كيف حالك أنت ؟ سأسافر إلى الإسكندرية لبعض الوقت .

- ... ...

- محمود أين أنت ؟

- أنا هنا ، فقط أريد الاطمئنان .

- اطمئن ، سأتصل بك عندما أعود ، تصبح على خير .

- مع السلامة .

مع هزات القطار راحت في إغفاءة ، تراءت لها أطياف وخيالات مطموسة الملامح تسبح في عالم هلامي . دقات طبول تأتي من بعيد . تعلو وتعلو . تضع يديها على أذنيها تحمي رأسها . مع فرملة القطار القوية ارتج جسدها وسقط رأسها من فوق كفها . صرخ الصغير فزعا . ضمته أمه إلى صدرها تهدهده . عدلت ثيابها متسائلة :

- أين نحن الآن ؟

الأم مستمرة فى هدهدة الصغير الذى بدأ صوته يخفت ويلتصق أكثر بصدرها .

- أعتقد اقتربنا من طنطا .

دعكت عينيها ومسحت على وجهها وهى تقوم .

- مازالت المسافة طويلة ، سآخذ شايا ، ما رأيك ؟

- كلا ، شكرا .

- إذن ماذا ؟

- لا شئ ، أشكرك .

- لا بد من شئ لتشاركينى .

- شاى إذن .

عبثت بأطراف أصابعها فى شعر الصغير وهى تمضى . وقفت أمام باب العربة تنظر إلى الخارج . شدة السواد جعلتها تجفل . تراجعت للخلف . اصطدمت بعامل البوفيه . طلبت منه كوبين من الشاى وأعطته رقمى المقعدين . دخلت إلى دورة المياه . غسلت وجهها . نظرت إلى نفسها فى المرآة وهى تجفف وجهها . ابتسمت . الآن أصبحت أكثر ابتعادا وأكثر راحة ، عادت إلى مقعدها منتعشة . أخرجت من حقيبتها

قطعة من الشيكولاتة ، حاولت إعطاءها للطفل . لم يستجب لليد الممدودة . ردت الأم على نظرتها المتسائلة :

- إنه لا يرى .

ارتجفت يدها . ارتدت إلى الخلف . نظرة غير مصدقة تنتقل بين الأم والطفل . لم تجد شيئا تقوله . ظلت صامتة غير مصدقة ويدها معلقة فى الهواء . أخذت الأم قطعة الشيكولاتة من يدها وفى عينيها دموع ترفض أن تسمح لها بالنزول .

- لاتنزعجى ، لقد تعودت على هذا الوضع ، ولد هكذا .

- لماذا ؟ كيف ؟

- لا أحد يدرى ، أنا من الإسكندرية وأذهب به مرة كل شهر إلى الطبيب فى القاهرة .

- سيشفى بإذن الله .

- هذا الأمل ما أحيا من أجله وإن كان ضعيفا ، هكذا قال الطبيب ، لكنى لن أترك ذرة من الأمل دون أن أسعى وراءها .

لاذت كل منهما بصمتها . لفتها مشاعر كثيرة لم تستطع استيضاحها . أشياء متناقضة تتصارع داخلها . فجأة انتابها إحساس بالتضاؤل . انكمشت على نفسها تحتسى الشاى المهتز مع حركة

القطار . « يالتفاهة الإنسان ! يا لتفاهتى ! سجنت نفسى بين قضبان ذاتى ، فلم أعد أرى غير قضبانى ، نسيت الدنيا كلها ، بكل ما فيها من أشياء جميلة من حقنا أن نستمتع بها وأخرى علينا أن نغيرها لنصنع الحلم ونمارس الحياة » .

تهادى القطار . لاحت تباشير الأضواء . قامت . أنزلت حقيبتها . مدت يدها لرفيقة الطريق . قالت بصوت حاولت أن يكون مرحا متفائلا :

– هل أطمع أن تتصلى بى إذا احتجت أى شئ من القاهرة ؟

– شكرا ، مع السلامة ، شكرا على الصحبة والشاى ، سأنزل أنا فى محطة مصر .

صافحت كل منهما الأخرى بابتسامة ودود وودعتها .

* * *

فى نافذة الفندق المطل على البحر وقفت تنظر إلى السماء . نجوم واجفة ترتعش فى برد المساء . أوراق الشجر الصفراء تجرى فى طرقات الحديقة ، تبحث عن مخبأ لها من الهواء الذى يهز الغصون فراحت تتراقص على نغم الأمواج فى رقصة بدائية وحشية . نداء يأتى إليها من داخلها وعبر تلاطم الأمواج بالصخور . البحر يزداد سوادا وغموضا كلما اقترب من السماء . قلبها ينتفض يشارك فى رقصة الأشجار . دقاته

طبول تدوى فى الفضاء . يسمعها القمر فينفض عن نفسه سحابة بيضاء تدثر بها . تتألق النجوم مستدفئة بحرارة الرقص فتنير لها الطريق . هبطت إلى الشاطئ . خلعت الحذاء قبل أن تطأ الرمال . للرمل فى الليل برودة منعشة . ناعمة الملمس . تتقدم طابعة بصماتها على الرمل . آثار أقدام باتجاه البحر . البحر يرسل أمواجه تجثو تحت قدميها اللتين يلثمهما الزبد قبل أن تتراجع المواجات المتضرعات . القمر فضة تلمع على موجات شعرها الذى اندمج فى سواد الليل . الرداء الملتصق بجسدها يلتف حول ساقيها ، رذاذ يتناثر يبلل خصلات شعرها المتطاير . البحر يردد إسمها فى أغنية حانية كتلك الأغنية التى كان يغنيها أبوها لها لتنام . على صفحة الماء فى البعيد عرش نورانى ، يجلس أبوها . عيناه تشعان بالحنان ، فاتحا ذراعيه ، تتراقص حوله عرائس البحر ملوحات ، تتمايل مع أنغام البحر مترنحة . تنساب الرمال من تحت قدميها عائدة إلى البحر ، مياه دافئة تدخر حرارة الشمس تتسلق ساقيها . ترتفع ببطء .

* * *

الشمس تتثاءب . تزيح ستائر الليل عن وجهها . تفتح عينيها دهشة ، « ياعذارى ، ياحسناوات ، من تلك الجميلة الخارجة من البحر ، باسمة الثغر ، فاتحة ذراعيها للحياة ؟ فينوس تولد من جديد تكسر محارتها وتنطلق ضاربة بقوة على الصخر ، تستقبل موكبى بفرح حقيقى ،

فلأمنحها دفئى وقوتى ، ولألفها بشعاعى لتكهن لى وتكون داعية للحب والحياة » .

* * *

على باب الفندق وقفت ، يقطر الماء من ثوبها ، ممسكة حذاءها بيدها ، عارية القدمين ، يتألق وجهها ببريق ونور . التفت إليها كل من بالبهو بين دهشة واستنكار ، فضول وتعجب . ضاحكة حيتهم تحية الصباح . خلفتهم صاعدة إلى حجرتها . فى الحمام استسلمت لنعومة الماء المنهمر على جسدها مترنمة بأغنية مرحة . خرجت إلى الشرفة تمشط شعرها تحت جناح الشمس وتستنشق هواء مفعما باليود . تتأمل خطوط الموج البيضاء على الصفحة الفيروزية تتعاقب كالأيام ولاتنتهى .

تركت شعرها حرا على كتفيها . ارتدت أجمل مالديها من ثياب . طلبت الإفطار وأكلت بشهية . جلست أمام البحر تحتسى الشاى الساخن ، أحست بشوق إلى شاى الفيشاوى ورائحة النعناع الأخضر والعجوز والمرايات المذهبة والمشربيات والشوارع العتيقة ، الغورية ، تحت الربع ، الخيامية ، خان الخليلى .

قامت تجمع ملابسها وأشياءها وتعد حقيبتها .

صدر من الكتاب الأول

١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلامونى
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - لكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطيه حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيله
١٥ - الأسماء لاتليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	دراسة	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليالى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر

٢٢ - شـــــروخ الـوقــت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنيـــة للخـــريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بـائـع الأقـنـعـــة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - أفـــراخ الحـــمـــام	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كـوجــهك حين ارتحـــال الـصـــبــــاح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشــيش البـــحـــر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - نـاصـــيـــة سليـمـــان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنيـة الولد الفـوضــوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سـؤال فـى الوقت الضــائع	قصص	مدحت يوسف

لجنة الكتاب الأول :

غير ملزمة بإعادة أصول الأعمال إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر

المؤلف :

- أمانى خليل .

- ولدت فى القاهرة .

- روائية وكاتبة قصة قصيرة .

- نشــرت فى عــدد من الدوريات أخــبــار الأدب ، أدب ونقـد ، الجمهورية ، المساء .

- ستصدر لها مجموعة قصصية بعنوان « كان ... » .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٤٠٥ / ١٩٩٨



نجحت الكاتبة فى هذه الرواية فى أن تجسد عالماً شديد التركيب والعمق، تمثل المرأة فيه مركزاً أساسياً، وعبر بحث عميق عن معنى حقيقى لفتاة حقيقية، نعيش مع البطلة لحظات حميمية وصور دقيقة لمختلف العلاقات والأحاسيس التى تعيشها. ولاشك أن الذى حقق مثل هذه الرواية المتميزة، هى قدرة الكاتبة على التقاط التفصيلات التى تكوّن الكل، بالإضافة إلي اللغة المكثفة الدقيقة التى تميل أحياناً إلى الشاعرية.





١٩٩٨